السماء لا تحابي أحدا

www.liilas.com

florist

تاليف : اريك ماريا ريمارك

ترجمة : السيد وفائى

الحاج عبد الحسن مكاوى
أحمد البدوى

السماء لا تحابى أحدًا

تأليف : أريك ماريا ريمارك

ترجمة : السيد وفائى

HEAVEN HAS NO FAVORITES

By .

Erich Maria Remarque.

دار الكتاب الجديد

مقدمة

مؤلف هذه القصة ايريك ماريا ريمارك من أشهر الكتاب الالمان في القرن العشرين . لمع اسمه منذ عام ١٩٢٩ حين صدرت روايته الخالدة كل شيء هادىء في الميدان الغربي التي بنهما انطباعاته الصادقة وانطلاقات خياله الفياض مع دقة تصويره لاحداث الحرب العالمية الاولى ، فجاء في أروع تصوير انساني للعذاب رغم الاحداث الجامدة في رقة هادئة وتحليل بديع . ومنذ ذلك التاريخ صدرت لكاتبنا العظيم عدة روايات كانت اولاها فرقة الاحلام ثم طريق العودة — عيسى الحياة — قوس النصر — فلندحب جارك — قلقة في لشبونة — المحطة الاخيرة — الرفاق الثلاثة — المسلة السوداء — للحب وقت وللموت وقت — الشاطىء الاخير — الحياة المستعارة .

وقد ظهرت رواية (كل شيء هادىء في الميدان الغربي) في السينما عام ١٩٣٠ ولاقت نجاحا منقطع النظير كما ترجمت الى اللغة العربية والى كثير من لغات العالم فضاعفت من شهرة كاتبها .

ولد ريمارك في المانيا عام ١٨٩٠ في مدينة اسبروك لاب كان يعمل في مهنة تجليد الكتب . وقد اشترك ريمارك في شبابه في الحرب العالمية الاولى فتشبع باحداثها وانفعل باهوالها وسجلتها رواياته ، ثم عمل مدرسا لفترة رحل بعدها الى برلين حيث جذب انتباهه العمل الصحفي فعمل صحفيا فيها . وفي عام ١٩٢٩ هاجر الى امريكا فعاش فيها واكتسب الجنسية الامريكية واقام في احدى ولاياتها .

وتتميز بعض كتابات ريمارك برومانسية الاسلوب حين لا تتعرض الرواية لشيء محدد المعالم واضح الهدف أما حين يكتب عن موضوع من الواقع فانك تراه اسلوبا دقيقا في التحليل والعرض متمكنا من سرد كافة الاتجاهات والافكار وتحليل الشخصيات مع تباينها وكثرتها ، دون ميل أو انحراف لفكرة أو الدفاع عن مبدأ معين أو تحبيذه . وقد ندد ريمارك في كثير من رواياته بالنازية التي ظهرت بوادرها حينذاك فأدانها وهاجم الحروب والدم والمذابح البشرية والخراب والفناء واعتبر نصيرا للسلام داعيا له .

وعلى الرغم مما اتسمت به معظم الروايات التي كتبها ريمارك من تصوير لمعاني الحرب وآثارها وبشاعة معسكرات التعذيب وشجونها والصراع الحزبي الدامي من أجل البقاء وهول أزمات العصر ومشكلاته التي حاقت بالعالم في اعقاب الحربين العالميتين الاولى والثانية ، الا اننا نجده يطرق بزراع اخاذ واسلوب ممتع أسمى المعاني وأرق المشاعر العاطفة الانسانية التي تنفذ الى القلوب بحنان بالغ كالحب والتضحية والبذل والاخاء والعون والفداء. وتتجلى موهبة ريمارك القصصية بأجلى معانيها في روايته فوس النمر كما تعتبر روايته قبس الحياة احدى القمم الادبية حيث صور فيها اباء البشرية وعزتها وكرامتها وعدم امكان هزيمتها امام بشاعة التعذيب في معسكرات النازية .

ويمكننا القول بان الاديب الالماني ريمارك يعتبر بلا ريب من اوائل الكتاب الذين ارسوا دعائم « ادب الحرب وقواعده » الذي أصبح بعد الان ضرورة يفرضها التطاحن المستمر للشعوب العالم في مسيرتها دفاعا عن قضية العيش والبقاء وتحديد المصير .

ومن بين ما كتب ريمارك الرواية التي نقدمها اليوم السماء لا تحابي أحدا وهي من أقوى قصصه التي تترك أثرا عميقا في نفس القارىء ... فهي تشد انتباهه ليعيش مع الذين يصارعون القدر بأحداثه يحس بأحاسيسهما وما يواجهانه من حدة المواقف وقسوة الاحداث ودوى الاهوال وصدى الرهبة التي تجيش في صدورهما .

فهي قصة رجل اختار لحياته اسلوب المخاطرة ، داب على عشق التحديات فتحدى الزمن في مواجهة القدر .... وقصة امرأة في مقتبل العمر حباها الله جمالا ساحرا اندفعت به نحو

مصيرها المحتوم تضطرب بما يضطرب به الناس في حياتهم ومتعهم غير عابئة بشيء ..

كانت حياة الرجل مراحل تمتد من سباق الى آخر ، أما هي فكانت حياتها أياما معدودة ، ولئن استطاعت ان تعيشها بكامل متعتها وبلغت منها ما تريد من حياة زاخرة انها قصة المغامرة المستميتة بغرض الحياة ضد الموت . قصة ينقل بنا مؤلفها — وكأنه مصور — لو ظهر في براعة نادرة مقدرة روعة جمال الالب ووحشتها وسحر باريس وبرودتها وجمال صقلية والبندقية وهدوء الريفيرا وجماله . انها قصة الذين جمعت بينهما الصدفة وطوقهما المصير المحتوم بذراعين فشربا كاس الحب حتى الثمالة غير عابئين بما قدرته لهما السماء . ان ما قدر يكون « والسماء لا تحابي أحدا » ومصائر البشر مقدرة من يوم خلقهم على اختلاف البشر في ظروف حياتهم وما ينتهجونه من طرق للعيش والحياة .

انها قصة أحلام اليقظة ، يؤدي خلالها الابطال أدوارهم على مسرح حياة لاهية ندفع بهم الى شفا الهاوية ، فيستيقظون في لحظة قدر لهم فيها ان تبدد هذه الاحلام مصطدمة بالواقع المر الذي لا مفر منه .

لقد عمد الكاتب الى تحليل مختلف ظواهر الحياة تحليلا دقيقا بنعومة بالغة رقت به الى قمة الابداع والبراعة ، وانسابت في عرض اخاذ مع مختلف المشاعر والعواطف في جرأة وحذر ، وشجاعة وخوف واقدام وحرص ، وحزن وأمل ، وأسى ورجاء ، وحب وبغض ، وتضحية وايثار .... الى آخر ما يختلج بالنفس البشرية من عواطف جياشة ونوازع متباينة واحاسيس مرهفة .

والان اتركك أيها القارىء العزيز في رحلة ممتعة نعيش فيها احداث هذه الرواية الرائعة بكاملها واعدك ان نتلاقى دوريا حين اقدم لك مزيدا من ادب الشرق والغرب .... فالى اللقاء .

الفصل الأول

توقف كلير فايت بسيارته أمام محطة للبنزين أزيلت من حولها الثلوج ، ونادى يستدعى القائم على خدمة السيارات بها وكانت الغربان تحوم حول أعمدة التليفون ، ومن داخل الورشة تنبعث طرقات قدق جسما معدنيا . وعلى دوى النفير سكتت الطرقات ، ولبى النداء فتى فى السادسة عشرة من العمر ، أقبل يساله عما يريد . وبادره كلير فايت قائلا ، وهو يغادر السيارة :

ـ تموين شامل

ـ رحلة طويلة ؟

ـ أجل .. أين يمكن ان أتناول شيئا من الطعام ؟

ـ هناك ، فى الجانب الاخر من الطريق .

ثم أردف ـ وكن على حذر فالثلوج متراكمة خاصة عند الممر ، والطريق مغلق ضبطا لتقرير نادى السيارات ، وقد تجد مشقة فى عبوره بمثل هذه السيارة الرياضية الصغيرة .

وكان جو المطعم خانقا ، تسرى فيه رائحة الجعة الممتزجة برائحة برد الشتاء الطويل . وأمر كلير فايت بأن

يؤتى له بطعامه الى الشرفة . ولم يكن الطقس شديد البرودة في الخارج . وكانت السماء زرقاء صافية الاديم .

وجلس يتناول طعامه ، ويحتسي نبيذه ، ويستعرض ما كان من رحلته الطويلة عبر فرنسا ، ويتساءل عما أتى به الى هذا المكان . لماذا لم يول وجهه شطر ميونيخ ؟ أو ميلانو ، ترى ماذا كنت فاعلا في ميونخ ؟ أو في ميلانو ؟ أو في أي مكان آخر ؟ لقد ضقت ذرعا بكل شيء . ضقت ذرعا بالانتقال من مكان الى مكان . أم تراني مللت هذه الحياة غير المستقرة ، وهذا الانطلاق غير الهادف ؟

وفرغ من تناول طعامه ، ثم عاد أدراجه الى داخل المطعم . وبعد أن سأل الفتاة القائمة على الخدمة بالمطعم ، أن تملأ زجاجة الخمر التي يحملها معه بكونياك المارتل غادر المطعم الى محطة خدمة السيارات ، حيث بادره الفتى مستفسرا ، لماذا لم تسلك الطريق العام بمثل هذه السيارة القوية ؟ وما الذي أتى بك الى مسالك الالب ؟

ويجيب كلير فايت ، وهو يحدق النظر به ، « أننا لا نتبع دائما طريق الصواب يا ولدي ، مع ادراكنا لحقيقة ماتفعل . أن سحر الحياة ، كثيرا ما يحملنا على تنكب الطريق السوي . هل فهمت ؟ »

ـ كلا . ستجد تليفونات النجدة على طول الطريق . فاذا ما صادفتك أية متاعب ، فما عليك الا أن تتصل بنا لنخف الى نجدتك فان لدينا رافعات قوية . ولاتنس أننا على ارتفاع أربعة آلاف قدم !

ـ وما اسمك يا بني .. ؟

ـ جوزنج .

ـ ماذا ؟

ـ جورنج . هوبرت جورنج .

ـ ترى هل لك علاقة قرابة ..

ـ كلا . أنني من أسرة بازل جورنج . لو أنني انتمي الى الاسرة الاخرى ، فما كانت بي حاجة الى مثل هذا العمل ، ولكنت الان ناعما بمعاش محترم من الحكومة الالمانية .

ـ وفقك الله فيما تبغي يا ولدي . لقد سعدت بلقائك

ـ أنك تتخذ من قيادة سيارات السباق مهنة ، أليس كذلك ؟

ـ كيف عرفت ذلك ؟

فأومأ هوبرت جورنج باصبعه الى رقم كاد أن ينمحي مدون في مقدمة السيارة . وعقب كلير فايت قائلا ، وهو يستقل سيارته ، « وبوليس سرى أيضا ! لعله من الخير للانسانية أيداعك أحد السجون لتجنيبها كارثة أخرى . فما أن تصبح رئيسا للوزراء ، حتى يكون قد فات الاوان .

وانطلق كلير فايت بسيارته ، وهو يستعرض من أمر هذا الفتى ما أثار دهشته ؟

● ● ●

بعد مسيرة ساعة ، بدأ الطريق يزداد وعورة نتيجة لتراكم الثلوج . وكان في وسع كلير فايت أن يعود أدراجه ، تجنبا لما عساه أن يحدث ، ولكن التخاذل لم يكن من شيمته . وآثر أن يتوقف بسيارته حيث كان ، يدخن سجائره ويحتسي خمره ، في انتظار رحمة الله .

وبعد قليل ، تمثلت له رحمته في صورة كاسحة الثلج ، وتقاسم كلير غايت مابقي من خمره مع قائدها . وتقدمه الرجل بكاسحته التي راحت تمهد أمامه الطريق . وتأمل كلير غايت قطع الجليد تتناثر امامه في دوائر من الشظايا التي تعكس أشعة الشمس ، فتبدو كقوس قزح مختلف الالوان ، وبعد مائتي ياردة استقام امامه الطريق ، وانحنى القائد بكاسحته جانبا ليفسح لكلير غايت الطريق . . . وامتد الطريق أمامه واندفع فيه صعودا الى هضبة القمة التي تشرف على الناحية الاخرى من الوادي المتسع ، بقريته التي تزهو بأسطح بيوتها البيضاء ، وبكنيستها العتيقة ، وبأضواء فنادقها القليلة ، في هذه الساعة من الغسق . وتوقف كلير غايت بسيارته قليلا ، ليملأ عينيه من منظر الوادي الجميل . ثم استأنف السير في حذر وعبر الطريق المنحدر الكثير المنحنيات . وانه لواجد في مكان ما من هذا الوادي ، المصحة التي يقيم بها هولمان ، زميله في القيادة ، الذي اعتلت صحته منذ عام . وقرر الطبيب أنه مصاب بالدرن . ولقد سخر هولمان من تشخيص الطبيب ـ أن مثل هذا المرض لا وجود له ، في عصر المضادات الحيوية ، ومعجزات الدواء . غير أن الدواء لم يحقق معجزته المرجوة ، وبالذات مع اناس نشأوا في زمن الحرب ، وتعرضوا لسوء التغذية عاما بعد آخر . وكان أن أصيب هولمان بنزيف حاد ، قرر بعده الطبيب انه من المتعين سفره الى الجبال ليصحة أشهر .

وقبيل نهاية الطريق المنحدر ، توقف محرك السيارة لعطل به فتركها تبلغ نهايته بقوة الاندفاع الى أن بلغت الطريق المستوى حيث توقفت عن السير ، فترجل منها

لفحص المحرك . وبعد معالجة أمره تمكن أخيرا من اصلاح العطل ، ثم أدار المحرك . وبينما كان مكبا على المحرك للتثبت من صلاحيته لمح عن بعد عربة انزلاق مقبلة في اتجاهه . وما أن سمعت الجياد صوت المحرك الهادر ، حتى جفلت واندفعت تركض نحو السيارة . فما كان منه الا أن قفز يمسك بزمامها محاولا أن يهدىء من روعها . وبعد بضع خطوات ، استطاع أن يوقفها ، وقد شعرت بقوة شكيمة اليد القابضة على زمامها .

وبعد أن تم له هذا ، استدار ليرى رجلا طويل القامة ، مرتديا معطفا من الفراء الاسود ، وقد استقام واقفا في العربة ، ثم راح يهدىء من روع الجياد ، متجاهلا وجود كلير غايت . وكانت الى جانبه امرأة في مقتبل العمر ، وقد اكتسى وجهها بامارات الفزع ومضت عيناها خوفا . فبادرها كلير غايت قائلا :

ـ آسف لازعاجك . ما كان ليخطر ببالي أن الجياد في هذه المنطقة لاتألف السيارة .

وتشاغل الرجل بأمر الجياد لدقيقة أو بعضها . ثم التفت اليه قائلا في لهجة جافة ، « ليس الامر ببالغ هذا الحد الذي خيل اليك . ان الجياد هنا لاتألف هذا الطراز من السيارات ذات الهدير الصاخب لقد كان في وسعي أن اعالج امرها . ومع ذلك ، فانني شاكر لك ما قمت به من اجلنا . وتبدى له من كلمات الرجل انه لا يريد أن يظهره بمظهر البطل امام هذه المرأة التي تجلس بجانبه .

وتأمله كلير غايت بنظرات فاحصة . وتبين في وجه الرجل سمات الرجل المتعالي ، وملامح الساخر المتغطرس ، وكأنه يحاول أن يخفي عنه ازدراءه لمحاولته الظهور بمظهر البطل المنقذ لهما . ورأى انه لم يسبق له

أن شعر بمثل هذه الكراهية لشخص بمجرد النظرة الاولى . فأجابه في لهجة غير ودية

ـ لم تكن بي رغبة لانقاذك ، بقدر ما رغبت في تجنيب سيارتي مغبة الاصطدام بالزلاقة

ـ ارجو الا تكون قد تسببنا في ازعاجك .

وعاد الرجل ليتشاغل عنه بجياده .. وراح كلير فايت يحدق النظر في المرأة الجالسة بعربة الانزلاق أنها لجديرة بأن يبدو في عينيها بمظهر البطل المنقذ .

كانت مصحة بيلافيستا ، مشيدة فوق مرتفع يشرف على القرية . وفي الميدان الفسيح أمام المصحة غادر كلير فايت سيارته ، بعد أن أطفأ مصابيحها وقام بتغطية محركها ليحتفظ بحرارته . وسمع صوتا يناديه باسمه من مدخل المصحة

واستدار ليجد هولمان مسرعا في اتجاهه . وتولته الدهشة لانه كان يتوقع أن يجده ملازما فراشه وسمعه يقول :

ـ كلير فايت ! أو حقا ما أرى ؟

ـ كل الحق . وانت ! ماذا تفعل هنا ؟ كنت أعتقد أنك ملازم الفراش .

فضحك هولمان وربت على كتف صديقه قائلا :

ـ كان هذا هو المتبع قديما . لقد طرق مسمعي هدير محرك سيارتك ، غير أنني لم أصدق أذني لاول وهلة ، وخيل الي أنني أهذي . ثم رأيتك قادما عن بعد . يا لها من مفاجأة ! من أين أنت قادم ؟

ـ من مونت كارلو .

ـ رباه ! وبهذه السيارة ! لقد دار بخلدي ، في وقت ما ، أنك قد أنسيت أمري .

وربت بيده على هيكل السيارة ، التي سبق له أن تولى قيادتها مع كلير فايت في أكثر من سباق ، وفي آخر مرة قادها داهمه النزيف . ثم استطرد قائلا :

ـ لقد قدم العهد بها .

ـ أجل . انها لم تعد تصلح للسباق . لقد ابتعتها من المصنع . أنها في عداد المتقاعدين .

ـ كما هو شأني

ـ انك لست من المتقاعدين . ما أنت الا في أجازة مؤقتة .

ـ لعام بأسره !أية اجازة هذه ! هيا بنا . اذا يجب ان نحتفل بقدومك . ما هي خمرك المفضلة في هذه الايام ؟ أهي الفودكا ؟

ـ لا تقل أن المصحة تقدم لكم خمرا ؟

ـ للزائرين فقط .. انها مصحة من طراز عصري .

ـ وما أحسبها الا كذلك . أنها تبدو كفندق كبير .

ـ وأن تبدو كذلك جزءا من العلاج . أنها نظريات العلاج الحديثة . فهم يشعرونك بأنك ضيف تستشفى ، ولست مريضا يعالج . حريصون على عدم ترديد كلمتي « المرض و « الموت » في هذا المكان أنها الكلمات المحرمة . أن الناحية النفسية لها أهميتها لرفع الحالة المعنوية لنزلاء المصحة . غير أن هذا كله لا يجدي عندما يحم القضاء . ماذا كنت تفعل في مونت كارلو ؟ هل أشتركت في سباقها ؟

ـ أجل . الم تعد تطلع على أنباء الرياضة ؟

ـ كنت أفعل ذلك في أول الامر ، ثم امتنعت .

ـ سنعود للاطلاع عليها بعد أن تستانف عملك ٠

ـ هذا ما أرجو أن يتحقق ٠ ترى من كان زميلك في السباق الاخير ؟

ـ توريانى ٠

واتجها معا الى المدخل ٠ وتأمل كلير فايت المبنى وما يحيط به قائلا :

ـ انه لمكان جميل ٠

ـ بل قل سجن جميل ٠

ولم يعقب كلير فايت بشيء . لقد كان يعرف الكثير عن السجون الاخرى ٠ واتبرى هولمان يسأله :

ـ هلا يلازمك توريانى في كل سباق ؟

ـ كلا . انني في انتظار عودتك . لذلك لن ارتبط بأحد سواك ٠

ولم يكن كلير فايت صادقا فيما قال ٠ لان توريانى كان زميله في كل سباق خلال الستة أشهر الاخيرة ٠ وقد وجد كلير فايت فرصة سانحة للكذب الابيض ، بعد أن علم من هولمان انه لا يتابع أنباء الرياضة . وقد كان لتصريح كلير فايت أحسن الاثر في نفس هولمان . ثم سأله :

ـ هل فزت بشيء في هذا السباق الاخير ؟

ـ كلا ٠ فقد كنت من الاواخر ٠

ـ من أين بدأتم السباق ؟

ـ من فيينا ٠٠ لم تكن الفكرة موفقة ٠ وكان هذا هو أول سباق أشترك فيه بالسيارة الجديدة ٠

ـ لعل فشلك كان انتقاما لسيارتنا السابقة ٠

ـ هيا بنا لنتناول ما وعدتني به من مشروب ٠ وأني لارجوك الا تحدثني بشيء عن السباق أثناء اقامتي هنا

ـ وعن أي شيء آخر سنتحدث ٠ هل حدث شيء ما ؟

ـ كلا ، كلا . كل ما في الامر انني متعب ، وأريد أن أنسى ، ولو لفترة قصيرة ، هذا العمل الجنوني الذي يعرض حياة الكثيرين للخطر ٠

ـ ماذا استجد من أمور ٠٠ ؟ انك لم تكن لتتحدث بذلك من قبل ٠

ـ لا شيء ٠ لا شيء ٠

ـ انني لا أصدق شيئا مما تقول ٠ ترى من عساه أن يكون الضحية الاخيرة ؟

ـ انه فيرر ٠ في سباق على الشاطيء ٠

ـ قتل ؟

ـ كلا ٠٠ ولكنهم اضطروا لبتر احدى ساقيه ٠ وهذه البارونة التي كانت مدلهة في حبه ، ضنت عليه بالزيارة ٠٠ الى بكاس من الخمر ٠ دعنا من هذا الحديث المقبض ٠

وجلسا في البهو ، الى مائدة صغيرة بجوار النافذة ٠ وتأمل كلير فايت ما حوله قائلا ، « وهل جميع هؤلاء من المرضى ؟ »

ـ كلا ٠ منهم ضيوف قدموا لزيارة مرضاهم ٠

ـ ترى هل المرضى منهم هم صفر الوجوه ؟

ـ كلا . انهم الضيوف . اما الآخرون الذين خيل اليك أنهم الاصحاء ، فهم نزلاء المصحة ٠ لقد استعادوا الكثير من صحتهم نتيجة لاقامتهم الطويلة هنا ٠

وأقبلت فتاة تحمل كوبا من عصير البرتقال لهولمان ، وقنينة صغيرة من الفودكا لكلير فايت . واستفسر هولمان من كلير فايت عن الفترة التي يعتزم قضاءها معهم ٠

ـ بضعة أيام ٠٠ أين يمكنني أن أقيم ؟

ـ أعتقد أن خير مكان يصلح لاقامتك هو فندق بالاس ، ففيه بار بديع .

وكيف عرفت هذا ؟

ـ أننا نتردد عليه من آن لاخر ، خلسة . وهذا لا يكون الا ليلا ، وان كان هذا مخالفا للتعليمات ، وذلك حينما تستبد بنا الافكار السوداء ، وما احسب سلوكنا هذا ، الا خيرا من الدخول فى مناقشة مع الاقدار عن السبب فيما نزل بنا من علة . اننا نتردد على الفندق لمعاقرة الخمر ، وفيها نجد السلوى .

واخرج هولمان من جيبه زجاجة صغيرة من الجين صب منها قليلا فى كوبه . فساله كلير فايت :

ـ الا يسمحون لكم بتعاطى الخمر ؟

ـ بالقليل منه ولكن ليس الى الحد الذى يرضينا ؟ وعندى أن طريقتى أفضل

وتوقفت عربة الانزلاق أمام باب المصحة . ورأى فيها كلير فايت نفس العربة التى التقى بها وهو فى طريقه الى المصحة . وترجل منها الرجل ذو المعطف الاسود . فسأل كلير فايت صديقه :

ـ هل تعرف من عساه أن يكون هذا الرجل ؟

ـ أنه روسى يدعى بوريس فولكوف ..

ـ أهو من الروس البيض .. ؟

فأجابه هولمان : ـ نعم .. ولكنه لم يكن من عظماء الدوقات ، وان لم يكن فقيرا . وقد فهمت أن والده أودع فى الوقت المناسب مبلغا ضخما فى أحد بنوك لندن ، ولكنه ذهب الى موسكو فى وقت غير مناسب فاعتقل وقضى عليه بالاعدام ، وهربت زوجته وابنها الى الخارج وهى محملة بأكداس من الجواهر .

ـ انك لعمرى مكتب للمعلومات .

ـ وهذا ما يسلمنا هنا .. ان أسرار الناس هى حديث المجتمع فى هذه المصحة .

ـ وهل هذه المرأة زوجته ؟

ـ كلا .

ـ وهل هما من المرضى نزلاء المصحة ؟

ـ أجل ، وان كان لا يبدو عليهما ما يوحى بذلك . أن المرأة هى التى تقيم بالمصحة ، أما الرجل فيقيم بالخارج .

وتوقف القادمان قليلا بجوار الباب . وبدا أن الروسى يلح فى حديثه الى صاحبته . وبعد أن وقفت تصغى اليه ، بدا أنها تشاطره رأيه وانصرفت عنه معرضة . ووقف الرجل يتأملها برهة ، ثم انصرف مستقلا عربته .

وعقب كلير فايت على ما شاهده بقوله :

ـ يبدو أن بينهما خلافا .

ـ هذا ما يحدث كثيرا . وهو نتيجة لما يشعر به المرضى من ضيق نفسى . أن حكمهم على الامور ليس كحكم غيرهم . انهم يجعلون من الهنات جسائم الامور .

واتفق كلير فايت مع هولمان على تناول العشاء معا فى قاعة الطعام المخصصة للضيوف بالمصحة .

وقبل أن يغادر كلير فايت مكانه ، كانت المرأة القادمة مع الرجل الروسى قد عادت من مؤخرة اليهو الى حيث كان هولمان جالسا يتبادل الحديث مع كلير فايت قبل انصرافه . واخبرته بما كان بينهما وبين كبيرة المرضات بسبب مغادرتها للمصحة مخالفة بذلك أمر مدير المستشفى . وبعد أن أفضت بما لديها وقدم هولمان اليها كلير فايت :

ـ ليليان ، صديقي كلير فايت . لقد حدثتك عنه كثيرا . لقد فاجأني بزيارته .

وأومأت اليه برأسها وهي شاردة الفكر . وبدا أنها لم تتعرف على كلير فايت ، بل التفتت الى هولمان مستطردة في غضب ، « أنها تريد مني ان أوى الى الفراش . وذلك لانه سبق أن اعترتني نوبة من الحمى منذ بضعة أيام ، ولكنني لن أصدع بأمرها . على الاقل هذا المساء ! ماذا أنت فاعل ؟ »

ـ سنتناول طعام العشاء في قاعة الضيوف .

ـ ساكون معكما .

وحيتهما منصرفة . واستفسر كلير فايت عمن عساها أن تكون المرأة .

ـ أنها تدعى ليليان دنكرك . نصف بلجيكية ، ونصف روسية . لقد فقدت والديها في الحرب .

ـ لقد بدت لي في حالة غير طبيعية . منفعلة من لا شيء .

ـ هذا هو شأنهم جميعا . وبالذات حينما تحدث وفاة في المصحة .

ـ وهل حدث شيء من هذا القبيل ؟

ـ أجل ، احدى صديقاتها . كان هذا بالامس فقط .

ـ ان الموت قدر محتوم في كل مكان .

الفصل الثاني

اذا ما تجاوزنا الطابق الاول ، لوجدنا أن المصحة لم تعد تشبه الفندق ، وأنها تبدو في ثوبها الحقيقي ـ مستشفى بكل معنى الكلمة .

ووقفت ليليان دنكرك أمام باب الغرفة التي كانت من قبل غرفة أجنيس سومرفيل . وسمعت أصواتا وضوضاء ، وفتحت الباب .

لم يعد النعش موجودا بالغرفة . وكانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها . وكانت بالغرفة خادمتان تقومان على نظافتها . ومن أرضية الغرفة كانت تنبعث رائحة الليزول والصابون ، ورأت ليليان في جو الغرفة ما لم تالفه من قبل . وخيل اليها انها أخطأت المكان . واستجمعت قواها أخيرا لتستفسر من الخادمتين عما كان من حال المتوفاة . فأجابتها احداهما :

ـ لقد نقلت الى رقم ٧ . كان علينا أن نقوم بتطهير الغرفة ، قبل أن يشغلها مريض جديد

وأغلقت ليليان الباب شاكرة . وكانت تعرف ماذا تعنيه عبارة رقم ٧ . أنه مدلول غرفة صغيرة بجوار المصعد الخلفي . وهناك تودع جثث الموتى ليسهل نقلها ليلا

بواسطة هذا المصعد المخصص لنقل الامتعة .

هذا هو الانسان يحمل بعد موته كالجماد ، وتطهر آثاره بالبنزول والصابون .. !

لم تكن الغرفة رقم ٧ مضاءة . وكان النعش مغلقا بعد الآن يحمل . وكانت نوافذ الغرفة مفتوحة وستائرها غير مسدلة ، وقد نفذ ضوء القمر من خلالها . وكان جو الغرفة متنامي البرودة .

وكانت ليليان تريد أن تلقي نظرة أخيرة على صديقتها . ولكنها عادت متأخرة ، ولم يعد في وسعها ذلك . أنهم سيقومون بنقل النعش في جنح الظلام الى مكان حرق الموتى . وهناك ستصير هذه الجثة الى العدم وتصبح رمادا ومجرد ذكرى .

وتأملت ليليان النعش .. وتبادر الى ذهنها أن الحياة قد دبت في جسد صديقتها ، وانه ليس بمستبعد أن تعود أجنيس الى وعيها . ألا يحدث مثل هذا من حين لآخر ؟ صحيح أن مثل هذه الحالات قليلة ، ولكن كم من الحالات شاء حظ أصحابها العاثر الا تكتشف قبل أن يختنق الموتى؟ الا يحتمل أن تكون أجنيس احدى هذه الحالات . وأنها تحاول في هذه اللحظة أن تخترق بصوتها جوانب النعش المحكم الاغلاق ؟

ـ هل أصبت بلوثة ؟ ما كان لي أن أقدم على دخول هذه الغرفة .. لماذا فعلت ذلك ؟ أو كان هذا بدافع من عاطفة ؟ أم كان هذا بدافع من فضول ؟ وما هو السبب في تلك الخواطر المتدافعة في ذهني المضطرب؟ أهو الظلام ورهبة الموت ؟ انني بحاجة الى الضوء . ان الظلام يبعدنا كثيرا عن واقع الحياة .

واستدارت تخطو نحو الباب . وفجأة توقفت حيث هي

تصيخ السمع . وخيل اليها أنها سمعت حفيف ثوب حريري . فسرعت تضيء نور الغرفة . وسرعان ما اكتسح ضوء المصباح الكهربائي القوي ظلام الليل ، وضوء القمر ، ورهبة الرعب . أن هذا الحفيف ليس سوى حفيف ثوبي الحريري . رباه ! ماذا دهاني ؟!

ووقفت تحدق النظر في النعش . كلا ، أن هذا الصندوق الاصم من الخشب الاسود لايمكن أن تكون به حياة . انه يحتوي على اقسى مايتهدد الانسان من مصير مظلم . ان من أودعت به لم تعد صديقتها أجنيس سومر قيل ، ولا جثتها المسجاة في ردائها الابيض . كلا ، ان هذا الصندوق لايضم سوى العدم ، وظلا لا ظل له ، وهذا الفناء الذي يكمن في الحياة منذ أول الخلق وينمو معها ، الى أن تستهلك يوما بعد يوم ، ولا يبقى منها غير العدم .

ومدت يدها تتلمس مقبض الباب . وما أن فعلت ذلك حتى فتح الباب ، فندت عن صدرها صرخة مكتومة . ووجدت أمامها أحد الحراس يحدق النظر دهشا .

وبادرها قائلا ، « بحق السماء ، كيف دخلت ؟ لقد كانت الغرفة مغلقة .. أين المفتاح ؟ »

ـ لم يكن الباب مغلقا .

ـ اذن فلابد وان أحدا قد .. ـ آه ؛ ان المفتاح لم يزل في مكانه من الباب ... لقد خيل لي .

ـ ترى ماذا دار بخلدك ؟

لقد خيل الى أنك ..

ثم أومأ بسبابته الى النعش . فهمست ليليان قائلة :

ـ تماما ...

ـ ماذا تعنين ؟

ـ لا شيء .

وتقدم الرجل خطوة من النعش قائلا :

ـ أنك لم تدركي ما أعني . لقد خيل الى أنك هي . ولقد فزعت لمجرد هذا الخاطر . لقد فرغنا نحونا من ترقيمها .

ـ نعم .. ! أعطيناها رقم ١٨ . اننا لا نهتم بالاسماء .. انها عندنا مجرد رقم

وأخرجت ليليان من حقيبة يدها بعض القطع النقدية :

ـ اليك بهذه في مقابل ما سببته لك من فزع

فشكرها الحارس ، وأردف قائلا :

ـ لا تبتئسي يا سيدتي . هذا هو مصيرنا جميعا .

● ● ●

وثلبت راجعة الى غرفتها ، وأضاءت جميع مصابيحها ، وظلت واقفة وقد استغرقت في تفكير عميق . أن الليل يفزعني . ترى ماذا أنا فاعلة؟ هل أتعاطى منوما ، ثم أوى الى فراشي بعد أن اترك هذه المصابيح مضاءة ؟ أم هل اتصل تليفونيا ببوريس لنتجاذب اطراف الحديث ؟

ومدت يدها نحو الجهاز ، ولكنها لم ترفع السماعة من مكانها . أنها كانت تعرف سلفا ماذا هو قائل لها . كما كانت تدرك انه على حق فيما سيحدثها به أن المنطق لن يجدي في مثل هذه الظروف . أن للناس مشاعرها التي تسيطر عليهم في مثل هذه الاحوال ، وأمام العاطفة لا يوجد محل للعقل .

واستقرت في مقعد بجوار النافذة . أنني في الرابعة والعشرين من عمري ، وهو ما بلغته اجنيس من عمر عند

وفاتها . ولقد أمضيت في هذه المصحة ثلاثة أعوام من سني حياتي . ومن قبل قضيت من عمري ست سنوات تقريبا ، كانت فترة حرب عالمية طاحنة . ماذا أعرف عن الحياة ؟ لست أعرف سوى الدمار ، والدموع والرعب ، وموت الوالدين ، والجوع ، والهروب من بلجيكا ، ثم هذا المرض الذي كان نتيجة لسوء التغذية والتشرد .

وقبل ذلك ، لم أكن سوى طفلة ساذجة . ولا أكاد أن أذكر كيف تبدو المدن في زمن السلم . أن كل ما يعلق بذاكرتي هو الاظلام والسيل المنهمر من القنابل ، ثم الاحتلال ، والخوف والتواري ، والبرد . أما السعادة ؟ تلك الكلمة التي طالما أوحت الى بالاحلام الرائعة ـ ما أبعد ادراكي لمعناها . لقد كانت سعادتي في غرفة غير دافئة ، ورغيف من الخبز ، وجحر منزو . وأخيرا انتهى بها المطاف الى هذه المصحة .

وتطلعت بعينيها من النافذة لترى عربة تقل قد وقفت بباب المصحة : لعلها في انتظار نعش اجنيس سومرفيل منذ عام كانت أجنيس قد قدمت الى هذه المصحة ضاحكة ، متدثرة في فرائها تحمل بين يديها باقة من الورد . وها هي الآن تحمل خفية من الباب الخلفي ، وكأنها سقط المتاع .

ومنذ ستة أسابيع ، كانت تتحدث الى ليليان عن خططها بعد مغادرة المصحة . الرجل ـ أنه السراب الذي لم يصبح حقيقة .... الحلم الذي لم يتحقق .

وسمعت رنين التليفون . وترددت قليلا قبل أن تجيب النداء .

ـ بوريس ، أجل . أجل ، سأحاول أن أكون عاقلة ـ أجل ، أعرف أن هذا هو ما يحدث في كل مكان ، ولكل

انسان ـ أجل ، انه مقدر على جميع البشر ـ أننى أدرك هذا تمام الادراك ـ أجل ؛ وأعرف أن الكثيرين من المرضى يقدر لهم الشفاء من علتهم ـ كلا ، لا حاجة بك للحضور ·· أجل ، أحبك ، بكل تأكيد » ·

وأعادت السماعة الى مكانها · وهمست قائلة وهى تتأمل صورتها فى المرآة ، « العقل » ! · وشعرت بأنها ترى أمامها وجها غريبا عنها ، بنظرات انكرتها ، عاقلة ! ، رباه : لقد كنت عاقلة أكثر مما يجب وفيم أفادنى هذا ؟ أو لتكون نهايتى اخيرا الى الغرفة رقم ٧ بجوار المصعد الخلفى ؟ مجرد شىء يودع فى صندوق خشبى اسود يفزع منه الناس ·

والقت نظرة على ساعة يدها . انها لم تبلغ بعد التاسعة . وهاهو ذا الليل امامها حالك الظلمة ، يمتد الى حدود الابد ، بجنبات من الملل والانقباض ـ مثل الحياة الرتيبة ، وانقباض الوجود العليل .

ونهضت ليليان عن مقعدها · فلم يعد لها قبل بهذه الوحدة المفروضة عليها « لابد وانها ستجد من تقضى معه بعض الوقت بالطابق الاول ـ على الاقل هولمان وصديقه الضيف ·

● ● ●

وكان بالقاعة ، بخلاف هولمان وكلير فايت ، ثلاثة من مواطنى أمريكا الجنوبية ، رجلان وامرأة بدينة مكتنزة الوجه . وكانوا جميعا يرتدون ثياب الحداد ، جالسين فى صمت مطبق ·

وتحدث عنهم هولمان قائلا :

ـ انهم قادمون من بوجوتا ، بناء على برقية من

المصحة · أن ابنة أحد الرجلين كانت تحتضر · غير ان الفتاة قد تحسنت حالتها قليلا بعد قدومهم · وهم الان فى حيرة من أمرهم ـ هل يعودون أدراجهم أم يمكثون ·

ـ لماذا لا تتخلف الام ويعود الرجلان ؟

ـ ليست هذه المرأة والدتها ، انها زوجة أبيها . وهى التى تقوم بدفع نفقات اقامة الفتاة · وفى الحق أن أحدا منهم لا يرغب فى البقاء ، بما فى ذلك الوالد · لم يكن يعنيهم من مانويلا سوى دفع نفقات اقامتها وهذا ما كان منهم طوال خمس سنوات · وما لم تبلغ حالة مانويلا الصحية حد السوء واليأس ، ما كانوا ليفكروا فى زيارتها . لقد قدموا استيفاء لشكليات المجتمع . وقد رأت الزوجة الثرية الغيور الاتدع زوجها يحضر بمفرده فاصرت على أن تصحبه واصطحبت معها شقيقها ـ الرجل الاخر . ويقولون فى بوجوتا ان الزوجة هى صاحبة الاقتراح بالحاق الابنة بالمصحة لابعادها عن والدها ولقد رأت باصرارها على السفر مع زوجها أن تصيب عصفورين بحجر واحد ، ملازمة زوجها ، وتاكيد حبها لابنة زوجها ، نفيا لما يتقولون به عليها ·

ـ وماذا عن مانويلا ؟

ـ لقد رفع قدومهم من حالتها المعنوية ، وكان هذا هو السبب فى تحسن صحتها · غير أن ضيوفها بدأوا يضجرون ، وما أحسبهم بعد اسبوع الا ناقمين عليها لما سببته لهم من ازعاج ·

ـ وانى لك كل هذه المعلومات ؟

ـ لقد قلت لك انه لا توجد هنا اسرار . لقد أنبأت زوجة الاب بدخيلة نفسها الى المرضة كورنيليا التى تلم باللغة الاسبانية .

ونهض الثلاثة المنشحون بالسواد ، ولم يكن احدهم قد نطق بكلمة واحدة . ومشوا في صف متتابع الى الباب .

وكادوا أن يصطدموا بليليان فتكرك ، التي أقبلت مسرعة بصورة افزعت المرأة البدينة التي انتحت جانبا تفسح الطريق لها فزعة . واتجهت ليليان راسا ، وهي تكاد ان تركض ، الى حيث كان يجلس كل من هولمان وكلير فايت . ثم استدارت وتطلعت الى الزائرين الثلاثة قائلة :

ـ ترى ماذا افزعها ؟ ما احسبني شبحا ؟ أم ترانى كذلك ؟ يبدو أنني اسبب الفزع للجميع الليلة .

فسألها هولمان :

ـ ترى من كنت سببا في فزعه سواها ؟

ـ الحارس .

ـ ولكنك لا تفزعيننا .

واستفسرت منه عن رئيسة الممرضات قبل ان تجلس فقال لها :

لم أرها بعد . غير أنني لا أستبعد قدومها الآن لتلقى بنا خارج القاعة . انها كجندى البروسي صرامة ودقة .

ـ يمكننا ان نتسلل الى الخارج الليلة . جوزيف هو الحارس .

ـ الى اين ؟ الى فندق بالاس ؟

ـ وهل يوجد ما هو أصلح منه ؟

وانبرى كلير فايت قائلا ، ، لن نجد مانبغي من ترفيه . أنني قادم لتوى من هناك » .

فضحك هولمان قائلا : « أننا لانبغي سوى التغيير . أن أي مكان خارج المصحة يعد مثيرا لنا . أنك بعد قضاء

فترة هنا لن تصبو الى الكثير » . وأسرعت ليليان تقول : « يمكننا ان نعجل بالتنفيذ الآن ، قبل أن ينضم الحارس الآخر الى جوزيف » .

فأجاب هولمان : « أشعر بوعكة هذا المساء . ربما كان هذا بسبب ما فوجئت به من اثارة . قد لا استطيع التسلل هذه الليلة . وماذا عن بوريس ؟ الن ينتظرك ؟

ـ انه يعتقد أنني آويت الى فراشي .

ـ هاهي رئيسة الممرضات قد اقبلت .

وعند الباب ، كانت تقف الرئيسة . وبابتسامة مغتصبة بادرتهم قائلة :

ـ أي طيور الليل ، كما كنتم دائما . لقد آن وقت الانصراف . هيا ، كل الى فراشه ! أن الغد يوم آخر .

ونهضت ليليان معتذرة : « وهل انت واثقة من قدوم الغد ؟ » .

ـ كل الثقة .. ستجدين العقار المهدىء فوق منضدة الفراش . أرجو لك ليلة هادئة واحلاما سعيدة .

● ● ●

وعقب هولمان على قول الرئيسة : « ترى لماذا تحرص الممرضات على معاملة كل نزيل في المستشفى معاملة الاطفال القصر أو السذج الغافلين ؟ » .

وكان ثلاثتهم واثقين بالردهة أمام باب المصعد . وسألت ليليان الضيف الجديد ، الى أين أنت ذاهب ؟ » .

فتأملها كلير فايت قائلا : « الى فندق بالاس » .

ـ هلا اصطحبتني معك .

ـ ولم لا ؟ هل ترغبين في ذلك الآن ؟ هيا بنا .

ـ كلا عليك بمغادرة المصحة من الباب الرئيسي ،

حيث تقف كبيرة الممرضات للمراقبة . ثم اتجه رأسا الى حيث تستأجر عربة جليد ، تعود بها الى الباب الخلفي للمصحة ، حيث ستكون في انتظارك .

ـ حسنا .

وانبرى هولمان يعتذر الى كلير فايت عن عدم مصاحبته له ، ثم استقل المصعد مع ليليليان . واتجه كلير فايت صوب باب الدخول الرئيسي حيث وجد كبيرة الممرضات تحياها تحية المساء ، منصرفا .

● ● ●

مضى في سبيله الى أن وجد بغيته . وعاد بعربة الانزلاق الى الباب الخلفي للمصحة حيث وجد نيبيان في انتظاره ، وقد ارتدت معطفا من الفراء الاسود . وقالت له :

ـ ، كل شيء على ما يرام . لقد تسلمت المفتاح من جوزيف في مقابل زجاجة من الخمر » .

واستقرت الى جواره في دعة . وسألته أن يشعل لها لفافة تبغ . فلما استفسر منها عما اذا كان مصرحا لها بالتدخين ، أجابته في حدة بأنه غير محظور عليها ذلك . وأدرك من لهجتها أنها لا تصدقه القول . وبعد أن قدم اليها بغيتها ، سألته في هدوء :

ـ من أين بدأت رحلة اليوم ؟ من مونت كارلو ؟

ـ من فيينا .

ـ فيينا ؟ عاصمة النمسا ؟

ـ فيينا بالقرب من ليون . انها مدينة فرنسية هادئة ، صغيرة ، تعرف بأن أحسن مطعم في فرنسا ـ مطعم البيراميد .

ـ هل جئت عن طريق باريس ؟

ـ كلا ، انها بعيدة الى الشمال .

ـ أي طريق سلكت ؟

ـ الطريق العادي . طريق بازل .

ـ وكيف وجدته ؟

وتساءل فيما بينه وبين نفسه دهشا عن السر في كل هذه الاسئلة عن الطريق الذي سلكه في رحلته . وأجابها :

ـ طريق يمتد تحت سماء مكفهرة وبين حقول متشابهة ، الى أن يبلغ بك جبال الالب » .

وكان يسمع ترديد أنفاسها . ثم استطاع أن يرى وجهها على ضوء مصباح منبعث من متجر للساعات ، وتبين فيه امارات الدهشة ، والسخرية ، والحزن . وسمعها تردف قائلة :

ـ «ريف ممتد مستو ؟ رباه ! انني أجود بأي شيء في سبيل الا أرى هذه السلسلة من الجبال التي تحيط بي » .

وفجأة ، أدرك السبب الذي من أجله تلح في استفساراتها عن الطريق الذي سلكه ، وكيف كان يبدو فقد كانت هذه الجبال بمثابة الجدارن التي تحول بين نزلاء المصحة وبين ما يضطرب الناس فيه من حياة عادية . انها كانت تعني لهم الامل والرجاء ، وان كانوا لا يستطيعون منها فكاكا . لقد كانت دنياهم قاصرة على هذه البقعة من الكون بعيدا ، بحيث كان العالم الخارجي يبدو لهم فردوسا مفقودا .

وسألها : كم من الزمن قضيت هنا ؟

ـ ثلاثة اعوام .

ـ ومتى يتيسر لك الرحيل ؟

ـ فلتسال في ذلك مدير المصحة . انه يعدني من شهر لاخر باقتراب اليوم الموعود ـ تماما كما تفعل الحكومات المشرفة على الافلاس بتجديد خطتها الرباعية فترة بعد أخرى .

وتوقفت عربة الانزلاق عند احد منحنيات الطريق الرئيسي ، حيث اعترض سبيلهم فريق من هواة الانزلاق .

وقالت ليليان في عصبية بادية :

ـ ان مثل هؤلاء يبذلون الكثير في سبيل زيارة هذا المكان ، بينما تجدنا على استعداد للتضحية بأي شيء في سبيل مغادرته .. اليس في هذا ما يدعو للسخرية ؟

ـ هذا يتوقف على الزاوية التي يرى من خلالها المرء هذا المكان .

واستانفت العربة مسيرها ، وسألته أن يشعل لها لفافة تبغ أخرى . وبعد فترة تأمل استطردت قائلة :

ـ لست أدري ما اذا كنت تعي ما أقول وتدرك كنهه أن شعورنا هو شعور المعتقلين في معسكر لا يعرفون شيئا عن اليوم الذي ينطلقون فيه منه .

ـ انني ادرك هذا الشعور تمام الادراك ، لانني كنت في معسكر اعتقال في يوم ما . أن أي مكان تقيد فيه حرية الانسان ، هو في نظره سجن ، حتى ولو كان الجنة ان الحرية هي حلم المرء الذي ينعكس على العالم الخارجي ، ولو كان صحراء جرداء .

ـ وكيف تخلصت من سجنك ؟

ـ كنت قد أعددت خطة للهرب .

ـ وهل وفقت ؟

ـ أجل . والا لما كنت معك الان .

● ● ●

توقفت العربة أمام الفندق . وتبين كلير فايت أن ليليان لا ترتدي الحذاء المطاط الواقي . فحملها بين ذراعيه من العربة الى باب الفندق قائلا : لم تصنع الاحذية الرقيقة لخوض الثلج . هل نذهب الى البار ؟ .

ـ أجل . أنني بحاجة الى كأس من الخمر .

وفي حانة الفندق ، اتخذا لهما مائدة في ركن منها . وأمرا الساقي بان يأتيهما بشراب يبعث الدفء في أطرافهما . ورحا تحدق النظر فيه لتستكشف حقيقة أمره ، والاسلوب الذي ينتهجه في معاملته لها ، فقد كانت تخشى أن يعاملها معاملة المرضى ـ تلك المعاملة التي أصبحت عقدتها النفسية .

وعاد الساقي بالنبيذ . وبعد ان اودع الكؤوس المائدة قال :

ـ انت مطلوب في التليفون ، يا سيدي .

ـ من عساه أن يكون ؟

ـ لست أدري ، يا سيدي . وهل اعود لاستفسر .

فنهض كلير فايت عن مقعده . وعندئذ قالت له ليليان

ـ انها رئيسة الممرضات ، ما في ذلك من شك .

● ● ●

بعد أن عاد كلير فايت ، سألته ليليان :

ـ هل هي رئيسة الممرضات ؟

ـ كلا . انها مستشفى مونت كارلو ، حيث توفي صديق لي .

ـ هل من المتعين عليك أن تعود الى هناك ؟

ـ كلا .. لا يوجد ما يدعو الى شيء من هذا القبيل . لقد كنت أفضل له أن يموت .

ـ كيف ؟

ـ لانه كان سيقضي البقية الباقية من حياته في حالة عجز تام ، اثر اصابته في حادث تصادم بسباق كان يشترك فيه .

وحملقت ليليان فيه غير راضية عما سمعته ثم سمعها تقول له في صوت خافت يفيض اشمئزازا :

ـ أو ليس من حق العاجزين أن يعيشوا ؟

وآثر كلير غايت الا يبادر بالاجابة ان صوت المرأة الاجش ـ تلك المرأة التي اتصلت به تليفونيا ـ لم يزل يتردد بصداه المعدني :

« ماذا تراني فاعلة ؟ ان قيرر لم يترك بنسا واحدا . فلتسرع بالعودة ! انني في حيرة من أمري . انها مسئوليتكم جميعا . انتم وسباقكم اللعين . »

وابعد عن خاطره ما انطبع في ذهنه من اثر لهذا الحديث ، وعقب على لومها له قائلا :

ـ ان الامر يتوقف على تقدير الظروف الخاصة لكل حالة . ان هذا الرجل كان مدلها في حب امرأة خدعته بكل ما اوتيت من وسيلة . وكان يهوى السباق الى درجة الجنون ، وان كان لم يقدر له ان يوفق فيه . لقد كانت كل امانيه في الحياة ان يفوز في مباريات السباق الكبرى ، وان يحتفظ بحب هذه المرأة . وقد قضى نحبه قبل أن يكتشف حقيقة وضعه من الامرين ـ كما أنه رحل عن هذه الدنيا دون أن يعرف أن تلك المرأة لم تقف الى جانبه بعد أن بترت ساقه . ومن هنا ، رأيت أن هذه النهاية كانت خيرا له .

ـ وما أدراك أنه لم يكن متعلقا بالحياة ، على الرغم من هذه الظروف ؟

وآثر كلير غايت ان يلتزم جانب الصمت ، وراح يستعرض ما قاله وما سمعه منها . كما عاد يستعرض حديث المرأة التليفوني ، وما واجهته به ! وأخيرا قال في صبر نافد :

« لا يمكن لاحد أن يهرب مما قدر له ، ولا يعرف أحد شيئا عن كيف ومتى سيحل به قدره . فيم التعلق بأهداب حياة طويلة ؟ ان هذا ليس سوى التمسك بخيط طويل المدى . أما المستقبل فليس بأطول مدى من حركة تنفس قد تتوقف في أعقاب أخرى تتردد في صدورنا والانسان عاجز عن الاحاطة بما حوله فيما عدا ذلك . فلنشرب نخب هذا . »

ـ نخب ماذا ؟

ـ نخب العدم . . أو قولي نخب قليل من الشجاعة .

ـ لقد ضقت ذرعا بالشجاعة ، وبالمواساة ، أيضا . فلتحدثني بما تبدو عليه الحياة عبر هذه الجبال .

ـ سماء مكفهرة لم يتوقف مطرها لعدة اسابيع .

ـ أما هنا ، فلم تمطر السماء منذ شهر أكتوبر الماضي . نحن لا نرى هنا سوى الثلوج المتساقطة . . لقد كدت أن أنسى كيف تكون الامطار .

● ● ●

وحين مغادرتهما للفندق كان البرد يتساقط . وأوما كلير غايت الى عربة انزلاق ، استقلاها الى الباب الخلفي للمصحة .

وقالت ليليان له وهي تهم بمغادرة العربة :

ـ شكرا . ومعذرة ـ فقد كنت بئس الرفيق . غير أنه لم يكن في وسعي أن أنفرد بنفسي الليلة .

ـ وهذا ماكان من شأني ... أنا الآخر .
ـ أنت ؟ ولماذا ؟
ـ السبب واحد . ولقد حدثتك بما كان للمحادثة التليفونية من وقع في نفسي . تلك المحادثة من مونت كارلو .
ـ ولكنك قلت أن وفاته كانت من الخير له .
ـ ان قولي هذا لا يعني أنني لم أفتقد صديقي . ان الاقوال أحيانا لا تعبر عن حقيقة ما يشعر به الانسان تعبيرا تاما . اليك هذه الزجاجة من الفودكا .. ليلة هادئة .

الفصل الثالث

صحا كلير فايت على صبح يوم معتم وسماء مليدة بالغيوم . وعلق الساقي على هذا الطقس بقوله :
« يالتلك الرياح الدافئة التي تشعر الانسان بالانتهاك والضجر .. ! انها لتضاعف من شعور المرء بآلام جراحه القديمة . »

ـ هل أنت من هواة الانزلاق على الجليد ؟
ـ كلا . ان جراحي من مخلفات الحرب .
ـ كيف لسويسري أن لا يهوى الانزلاق .. ؟
ـ انني نمساوي . ولقد مضت وولت تلك الايام التي كنت أمارس فيها هواية الانزلاق على الجليد . لقد تركت لي الحرب ساقا واحدة . وهذا الطقس الدافيء يضاعف من شعوري بالالم ، وقد كادت برودة الطقس أن تنسيني اياه .

وقرر كلير فايت أن يؤجل رياضة الانزلاق في هذا اليوم العاصف . علاوة على ماكان يشعر به من صداع شديد . بسبب اسرافه في الشراب عقب عودته ليلا . لقد أثارت فيه هذه الفتاة الشديدة التعلق بالحياة ماكمن من مشاعر

وآمال . كما بعث فيه موت صديقه من الهواجس ما رسب في قاع وجدانه .. لقد كاد أن يتجاوز ربيع الحياة .. بدون هدف ، وبدون معين .

ونهض يرتدي معطفه ، الذي وجد في أحد جيوبه قفاز ليليان المخملي الاسود ، وكانت قد نسيته فوق المائدة في الليلة السابقة . وأعاد القفاز الى جيبه ، ليعيده اليها فيما بعد .

● ● ●

مشى على غير هدى فوق الثلوج ، الى أن حملته قدماه الى مبنى صغير مربع الشكل ، بعيدا عن الطريق على مشارف الغابة . وكانت تعلوه مدخنة ينبعث منها الدخان . وأثارت فيه رؤية هذا المبنى ذكريات بذل قصارى جهده طوال هذه السنين ليمحوها من ذهنه وينمي أمرها . واستفسر من صبي عما عساه أن يكون هذا المبنى ، فأجابه بانه دار حرق الجثث .

اذن ، فلم يكن مخطئا في حدسه .

وعقب على اجابة الصبي قائلا :

ـ هنا ؟ ولماذا تحتفظون بدار لحرق الجثث ؟

ـ هذا بناء على طلب المستشفيات .

ـ وهل بلغ عدد الموتى هذه الكثرة ؟

ـ لم يعد عددهم بالكثرة التي كان عليها من قبل .. إن الشتاء هنا طويل قاس . وفي الشتاء يصبح من المتعذر شق الارض .. ان قشرة الارض تصبح صلدة كالصخر ، ويبلغ عمق الجليد أمتارا . ولذلك كان من الايسر حرق الجثث ، أولى من محاولة دفنها ، أو شحنها في السفن في صناديق من الزنك الى حيث تتسلمها أسرها . ان الناس

يميلون الى الاقتصاد في النفقات ، والزمن يتغير ، وأساليب التفكير قد تغيرت أيضا .

ـ انك فتى ممتاز ، واسع الاطلاع ، سليم التفكير .

ـ لقد تعلمت من والدي الكثير . لقد كان متمهدا لنقل الموتى سابقا ، وسافر الى كثير من البلدان .

ـ وما هو عمله الآن ؟

ـ بائع زهور . فهذا المتجر الموجود في مواجهتنا هو مستقره الآن . اذا ما كنت بحاجة الى شيء منها ، فستجدها لدينا بأقل سعر .

وفكر كلير فايت مليا . باقة من الازهار ؟ ولم لا ؟ أيوجد ما يمنع من أن يبعث ببباقة منها الى تلك الفتاة الثائرة المقيمة بالمصحة ؟ انها قد تثلج صدرها . ويا حبذا لو اكتشف أمر الباقة صديقها الروسي . واتجه الى المتجر .

وخف لاستقباله رجل قصير القامة يرتدي حلة داكنة اللون . وتأمله كلير فايت بعينين فاحصتين . كما جال في أركان المتجر بنظرات فاحصة . ووجد أن المتجر لا يحوي من الازهار سوى العادي المتواضع ، اللهم الا قلة لا تتفق والمكان . وراح الرجل يطري هذه المجموعة مشيدا بجمالها ، وحداثة عهدها . وأمره كلير فايت باعداد باقة منها . ثم أخرج قفاز ليليان المخملي الاسود من جيبه ، قائلا :

« وهل يمكن وضع هذا مع الباقة . وهل أجد لديك بطاقة ومظروفا ؟ »

● ● ●

قفل كلير فايت راجعا الى القرية . وشعر بأن رائحة

الدخان المتصاعد من دار حرق الموتى لا زالت تزكم أنفه ، رغم أنه كان بعيدا بحيث لا يمكن أن تحمله اليه الرياح ٠ ان هذه الرائحة ليست سوى رواسب ذكريات سابقة لافران كانت تشتعل ليلا ونهارا ـ تلك الافران بقرب المعسكر الذى كان معتقلا به وهذه الذكريات التى كان يريد أن ينسى أمرها ٠

ودخل احدى الحانات ، وأمر باعداد مشروب قوى فى كأس مزدوج ٠ وبعد أن ألقى بمحتويات الكأس فى جوفه ، أمر باعداد آخر ، وراح يتذوقه ، ويعبث بالكأس بين أصابعه ، مستغرقا فى تفكير عميق ٠

وبعد هذا ذهب الى الجاراج ليطمئن على سيارته ٠ وكانت السيارة مودعة فى الناحية الاخرى منه ، ومقدمتها الى الجدار ٠ وتوقف كلير فايت عن السير عند المدخل ٠ واستطاع أن يرى من حيث كان ، شخصا ما يجلس الى عجلة القيادة ٠ واستفسر من مدير الجاراج : « ترى هل من دأب عمالك أن يفعلوا هذا ؟ »

ـ انه ليس بأحد عمالى ٠٠ انه رجل يزعم أنه صديق لك ٠

وراح كلير فايت يحدق النظر فى الجالس الى عجلة القيادة ، الى أن عرف فيه صديقه هولمان ٠ وسأله المدير :

ـ ألبس كذلك ؟

ـ بلى ٠ منذ متى كان قدومه ؟

ـ منذ دقائق فقط ٠

ـ وهل هذه هى أول مرة ؟

ـ كلا ٠ لقد حضر فى الصباح المبكر ٠

وكان هولمان جالسا الى عجلة القيادة ، مولياً ظهره الى كلير فايت ٠ وليس من شك فى أنه كان يجلس جلسة الحالم بأنه يقود سيارته فى السباق ٠ وبعد أن وقف كلير فايت يتأمله قليلا ، انسحب فى هدوء الى الخارج ، وقد أوعز لمدير الجاراج بأن يتبعه ،

ـ لا تقل له أننى كنت هنا ورأيته ٠ دعه يفعل بالسيارة ما طاب له ٠٠ واليك مفاتيح السيارة لعله أن يسألك تسليمها له ٠ فاذا لم يفعل هذا ، فلتدع المفاتيح فى السيارة بعد رحيله ، استعدادا للمرة القادمة ٠ هل فهمت ما أعنى ؟

ـ أجل ٠ انك تريد منى أن أدعه يفعل ما يشاء بالسيارة بما فى ذلك الانطلاق بها ٠

ـ تماما ٠ فلتترك له مطلق الحرية ، كأن السيارة ملك له ٠

فى ساعة تناول طعام الغداء بالمصحة التقى كلير فايت به ، وبدا هولمان متعبا ٠ وبادر صديقه قائلا : « تلك الرياح الدافئة ، انها تشعر المرء بأنه ليس على ما يرام ٠ وانها لتجعل من النوم شيئا صعب المنال ٠ كيف قضيت ليلتك ؟ »

ـ لقد تعاطيت كثيرا من الخمر ٠

ـ بعد أن افترقنا ٠

ـ فى ملهى مثل هذا ، يلزم كل منا فراشه ٠

وتطلع كلير فايت فيما حوله ٠ ولم يكن بقاعة الطعام كثير من الناس ٠ وكان الضيوف الذين من أمريكا

الجنوبية قد اتخذوا لهم مجلسا فى ركن منها . أما ليليان فلم تكن موجودة .

وبادر كلير فايت صديقه بسؤاله :

ـ هل غادرت المصحة اليوم ؟

ـ كلا . هل سمعت شيئا عن فيرز ؟

ـ لقد وافته المنية .

وران عليهما صمت مطبق . ولم يكن ثمة ما يقال فى هذا المجال .

واخيرا قال هولمان ،، ماذا تزمع عمله بعد ظهر اليوم ؟ ،

ـ سأنام قليلا ، ثم أقوم بجولة . لا تشغل نفسك بامرى . انني أنعم بفترة استرخاء هنا .

وفتح باب القاعة . ووقف به بوريس فولكوف يجيل عينيه ، ثم أومأ برأسه محييا هولمان وقد تجاهل كلير فايت . ثم أغلق الباب منصرفا .

وانبرى هولمان قائلا : ـ انه يبحث عن ليليان . والله يعلم أين هى الان . كان ينبغى أن تكون فى حجرتها .

ونهض كلير فايت وهو يقول : « سأنصرف لاستريح قليلا . الحق معك أن الطقس اليوم لا يطاق . هل يمكن أن تشاركنى طعام العشاء الليلة ،،

ـ بكل تأكيد . انني اليوم أحسن حالا .

ـ اذن ، فليكن لقاؤنا فى الثامنة مساء ، بهذه القاعة .

ـ فى السابعة ، ما لم تكن ترغب فى تناول عشاءك فى مكان آخر ؟ بدأت تشعر بالسأم ؟

ـ كلا . فلم يسبق أن أتيحت لى فرصة للاستجمام مثل هذه الفرصة . ان السأم أصبح من الامور النادرة فى عصرنا هذا لم يعد العالم ليعرف غير الحركة الدائبة .

هل تريد أن آتيك بشيء خاص معى ؟

ـ كلا . شكرا . وبالمناسبة ، ستقيم احدى الايطاليات حفلا الليلة هنا . انها تدعى ماريا سافينى . وستقام المأدبة فى الخفاء ، بدون أدنى شك .

ـ وهل دعيت الى هذه المأدبة ؟

ـ انهم يقيمون مثل هذه المآدب دائما بعد وفاة أحد المرضى .. لقد حانت ساعة القيلولة .. اضطجع مسترخيا فى هدوء . الى اللقاء ليلا .

واخيرا توقف السعال .. واستلقت ليليان دنكرك منهوكة القوى . لقد دفعت ثمن ما أجهدت به نفسها طوال الامس ، ليلا ونهارا . وكانت تترقب فى صبر نافد قدوم الممرضة . وكان هذا اليوم ، هو اليوم المحدد لصورة الاشعة .

وعلى الرغم من أن دخولها غرفة الاشعة كان روتينا متجددا ، الا أنها كانت تشعر بالحرج من وقوفها نصف عارية خلف الشاشة ، وقد كشفت الاشعة عن دقائق جسدها ، ما بطن منه وما ظهر .

واقبلت الممرضة أخيرا ، وبادرتها ليليان بسؤالها :

ـ ترى من سيقتنى الى الفحص ؟

ـ الانسة سافينى .

ـ ونهضت ليليان تتبع الممرضة الى المصعد . وعلت منها بما طرأ على الطقس من تغير . وراحت تستعرض فى خاطرها ما سيعقب هذا من جو رطب ، وهواء ثقيل ، وضيق تنفس فى الصباح . والتقت بماريا سافينى خارج غرفة الاشعة . واستفسرت منها ليليان عما كشفت عنه الاشعة ، فأجابتها :

ـ لم يصارحني الطبيب بشيء . ماذا ترين في ثوبي هذا ؟

ـ رائع !

ـ هل حاز اعجابك حقا ؟ انه من فلورنسا . هل ستلبين دعوة الليلة ؟

ـ لم أقرر بعد .

ـ يحسن بك أن تشاركينا هذه الامسية . لقد حصلت على اسطوانات جديدة من أمريكا .

وأسرعت ليليان بدخول غرفة الاشعة ، تلبية لاستعجال الممرضة لها . ووجدت مدير المصلحة في انتظارها . وبعد أن اطلع على الرسم البياني لدرجات الحرارة ، راح يتمتم بشيء الى مساعده ، دون أن تتبين ليليان شيئا مما كان يقوله . وبعد أن نحى الرسم البياني جانبا ، شرع في فحصها بالاشعة ؛ في تأمل واهتمام . وطالت فترة الفحص عن ذي قبل ، الى أن شعرت ليليان بالاجهاد وراح كبير الاطباء يناقشها ويحاورها ؛ وكانت رئيسة الممرضات قد أفضت اليه بشيء .

وأدركت ليليان من ملابسات هذا الفحص ، الذي تجاوز حدود ما سبقه ، أن حالة رئتيها لم تتحسن ، بل ازدادت سوءا . والحت على الطبيب في أن يصارحها بحقيقة ما أسفرت عنه نتيجة الفحص ، فقال لها في اقتضاب :

ـ يحسن بك أن تلازمي الفراش لبضعة أيام .

ـ أن ملازمة الفراش تضاعف من سوء حالتي .

ـ اذن ، فليكن هذا قاصرا على اليوم فقط ، على الا تغادري غرفتك لبضعة أيام .

وأمر لها بالعلاج المناسب .

عادت ليليان الى غرفتها ، وصبت لنفسها كأسا من الفودكا . وراحت تتأمل صورتها في المرآة ، لتتثبت من انها لم تزدد نحولا . وما أن سمعت وقع أقدام الممرضة التي كانت تحمل اليها طعام عشائها ، حتى أسرعت تخفي الزجاجة بين طيات الفراش .

وبادرتها الممرضة معنفة : « لماذا لا تلازمين فراشك كما أمر الطبيب ؟ اليك هذه اللفافة التي أرجح أن بها أزهارا . »

وتبادر الى ذهن ليليان أنها من بوريس ، الذي أقلقت منه ذلك ، فلم تسرع بفضها .

وبينما راحت ليليان تلتقط القليل من طعامها ، كانت الممرضة تقوم بأعداد فراشها . ثم سألتها أخيرا :

ـ ألا تحبين سماع الراديو ؟

ـ الامر عندي سيان .

وبدأت الممرضة تدير الراديو ، متنقلة بين مختلف المحطات ، الى أن توقفت عند احدى اذاعات باريس ، التي كانت تذيع عزفا على البيانو لقطعة موسيقية من روائع ديبوسي . ووقفت ليليان بالنافذة تنتظر في صبر نافد انصراف الممرضة بعد أن تفرغ من عملها . وسمعتها تسألها ؟ هل تعرفين باريس ؟!

ـ أجل .

ـ لم يسبق لي أن زرتها . لابد أنها مدينة رائعة .

ـ حينما كنت في باريس ، كانت مدينة مظلمة ؛ قاتمة ، مقبضة ، يحتلها الالمان .

ـ لقد انتهت هذه الظروف الشاذة الان . وليس من شك في أنها عادت الى سابق سيرتها قبل الحرب . ألا تتوقين الى زيارتها ثانية ؟

ـ كلا . ان زيارة باريس في الشتاء غير مرغوب فيها . هل فرغت من عملك ؟

ـ تقريبا . وفيم العجلة في مكان مثل هذا ؟

واخيرا غادرت الممرضة الغرفة واسكتت لبلبان الراديو .

نعم ، انها لعلى حق فيما قالت فلا يوجد في هذا المكان ما يدعو الى العجلة . ليس ثمة سوى الحياة الملة الرتيبة . حياة كلها انتظار وترقب .

وشرعت تفض اللفافة .. وما ان وقع نظرها على ما بها من أزهار ، حتى تركتها تسقط من بين يديها وكأنها رأت في طياتها حية تسعى . وراحت تحدق النظر في زهرة الاوركيدة المستقرة بين قدميها . انها تعرف هذه الازهار ، أم تراها مجرد مصادفة ؟ وما انها من مصادفة . ان الزهر يتشابه . ولكنها كانت تشعر في قرارة نفسها ان هذا التشابه ليس من قبيل المصادفة . ان زهر الاوركيدة ليس مما يوجد في هذه القرية . لقد حاولت ابتياع البعض منها ، وبعد أن اعياها البحث بعثت في طلبها من زيورخ . وراحت تحصي زهر الباقة ، فوجدت عددها مطابقا لعدد ما كان بالباقة الواردة من زيورخ . اذن ، فليس ثمة مجال للشك .. ان هذه الباقة هي بذاتها الباقة التي اودعتها نعش اجنيس سومرفيل . رباه ! ما هو تعليل ذلك ؟ هل هي دعابة سخيفة من بعضهم ، ولماذا ؟ وكيف يحدث هذا ؟ كيف عادت هذه الباقة الى ؟ وماذا يعني هذا القفاز المودع معها ، وكأنى به يد الموت السوداء تمتد الى مندرة متوعدة ؟

وخطت تبتعد عن هذه الباقة وكأنها أفعى سامة شريرة ان هذه الباقة لم تعد في جمال الزهور .. لقد

جعلت سلتها بالموت شبحا كريها بغيضا . وسارعت تلتقطها وتلقي بها من نافذة غرفتها .

وعادت لترى القفاز المخملي الاسود لم يزل في مكانه فوق الارض . واستطاعت أن تتعرف عليه أخيرا ، وتبادر الى ذهنها أنها نسيته بحانة الفندق حينما كانت في رفقة كلير فايت . كلير فايت ! وما هي علاقته بهذا كله ؟

واتصلت به تليفونيا . وسألته :

ـ هل بعثت بقفازي ؟

ـ أجل . لقد وجدته فوق المائدة بعد انصرافك .

ـ وهل بعثت الى بباقة من زهر الاوركيدة ؟

ـ أجل . وكانت بطاقتي مرفقة بها .

ـ بطاقتك ؟ ومن أين حصلت على هذه الباقة ؟

ـ من متجر لبيع الزهور . لماذا ؟

ـ وهل هو من متاجر القرية ؟

ـ أجل .. فيم اسئلتك هذه ؟ هل هي مختلسة ؟

ـ لست أدري . . ربما .

ـ هل أحضر اليك ؟

ـ أجل .

ـ متى ؟

ـ في مدى ساعة .

ـ فليكن . وليكن اللقاء عند الباب الخلفي .

ـ تماما .

وأعادت سماعة التليفون الى مكانها وهي تحدث نفسها قائلة :

ـ الحمد لله . ! ها هو رجل لا يتعين علي أن اتقدم اليه بمبررات بافعل .. هاهو رجل ليس بثقل على

بأسئلته . ها هو رجل لا يعنيه من امرى شيئا ولا تقلقه حالتى الصحية ، مثل بوريس .

وعند الباب الخلفى ، كان كلير فايت فى استقبالها . وكان قد رأى باقة الزهر ملقى بها فوق الجليد .

فقال لها بعد أن حياها :

ـ الا تحبين زهور الاوركيدة ؟

ـ من اين حصلت عليها ؟

ـ من متجر للزهور عند مشارف القرية . هلا صارحتنى بجنية الامر ؟

ـ هذه الباقة .. هى بذاتها الباقة التى كنت قد أودعتها نعش صديقتى بالامس . ان المصحة لا تحتفظ بشىء من هذا القبيل . لست ادرى كيف ؟

ـ رباه ، ان هذا المتجر يقع أمام دار حرق الجثث تقريبا .. انه متجر صغير .. ولقد تساءلت فيما بينى وبين نفسى ، اتى لمثل هذا المتجر مثل هذه الزهور . هذا يفسر ..

ـ ماذا تعنى ؟

ـ اعنى انه بدلا من أن تحرق الباقة مع الجثة ، اختلس احد العمال الباقة وباعها الى المتجر .

ـ كيف يحدث هذا ؟

ـ هذا هو التفسير الوحيد لما كان . ان زهور الاوركيدة تتشابه ، ثم أن من فعل ذلك ما كان ليخطر بباله وقوع مثل هذه المصادفة .. أن تعود الباقة لمن سبق أن ابتاعتها .

وتأبط كلير فايت ذراع ليليان قائلا : « من الافضل ان نتخذ من ذلك مادة للضحك من غريزة الجشع المتأصلة فى الانسان . فاننا ان لم نفعل فتلنا الاسى كمدا على ما يصادفنا فى عصرنا هذا .. »

ـ او بلغ الجشع بالانسان هذا الحد ؟ أن يسرق الموتى .

ـ هونى عليك .. علم بنا نتناول شرابا فى مكان ما .

وفتح باب عربة الانزلاق ، واستقلاها معا الى الفندق ، حيث تبعها الى الداخل وهو يقول : « ليكن حديثنا هذا المساء عن سطحيات الحياة .

وبعد أن امضيا بحانة الفندق حوالى الساعة ، يتجاذبان أطراف حديث عادى ، وقع نظر ليليان على بوريس يجتاز الباب . فقالت :

« ها هو بوريس . كنت أتوقع هذا . »

وأقبل الروسى عليهما قائلا ، وقد تجاهل وجود كلير فايت :

ـ ليليان ، ان عربتك فى انتظارك بالخارج .

ـ لست بحاجة اليها الليلة .. هذا هو مستر كلير فايت . لقد التقيتما من قبل .

ونهض كلير فايت عن مقعده متثاقلا ، وانبرى فولكوف قائلا : « حقا ؟ هذا صحيح . معذرة لقد كنت تقود سيارة السباق التى جعلت منها الجياد » .

ولم يعقب كلير فايت بشىء ، ولمس لهجة التعالى فى صوت فولكوف . ومع ذلك ، فقد ظل واقفا والتفت بوريس يقول لليليان .

ـ هل نسيت أن الغد هو اليوم المحدد لاعادة فحصك باشعة اكس ؟ .

ـ لم أنس .

ـ يجب أن تنالى قسطا من الراحة وتخلدى للنوم .

ـ أعرف هذا . لم يزل الليل طويلا .

كانت تتحدث فى هدوء وعلى مهل ، وكأنها تجيب طفلا قاصر الفهم . وأدرك كلير فايت أن هذا الاسلوب هو

الوحيد الذي يمكنها به السيطرة على اعصابها . ورثى لحال الروسي الابيض لما اقحم نفسه فيه . ووجد نفسه يقول له :

ـ هلا تفضلت بالجلوس ؟

ويجيب فولكوف ببرود : كلا .. شكرا .

« وكأنه كان يتحدث الى السلقي القائم على خدمتهما .

ثم التفت بوريس الى ليليان قائلا :

ـ اذا كنت تريدين استعمال العربة ..

ـ كلا ! قلت لك اننى ..

وكان كلير فايت قد ضاق ذرعا بهذه المناورة ، فتدخل قائلا في هدوء :

« لقد اصطحبت الانسة دنكرك الى هنا . واعتقد ان في وسعي العودة بها من حيث قدمنا . »

وحدجه فولكوف بنظرة فاحصة لاول مرة . وقال له مبتسما وقد غير من لهجته .

« اخشى انك لم تفهمني ، غير اننى اعتقد انه لا جدوى من الدخول في التفاصيل . »

ثم انحنى محييا ليليان قبل أن ينصرف الى البار .

وجلس كلير فايت غير راض عن نفسه ، وهو يتساءل عما هو بسبيله .. اتراه ما زال في العشرين من عمره ؟

وسألها قائلا : « لماذا لم تعودي معه ؟ »

ـ اتريد أن تتخلص مني ؟

وتاملها قليلا . انها تبدو فتاة وديعة لا حول لها ولا قوة ، والوداعة أخطر سلاح في يد المرأة .

ثم أسرع يجيبها ، « كلا ، بكل تأكيد . اننى سعيد بصحبتك . »

ودارت بعينيها في الحانة ، لتجد أن بوريس قد اتخذ له مائدة بعيدة عنهما ولم ينصرف . فقالت :

ـ انه لم يفقد الامل بعد .. انك لم تفهمه على حقيقته انه ليس بالغيور .

ـ كيف ؟ أو حقا ما تقولين ؟

ـ أجل . انه قلق من أجلي ، لا يفتأ يبدي اهتمامه بحالتي الصحية .

وصب لها كلير فايت كاسا ، ثم اردفه بكاس له . وقال :

« سنرى ما سوف يكون من أمره . »

وكانا يتطلعان من آن لاخر ناحية المائدة التي كان يجلس اليها بوريس فولكوف . وقال لها كلير فايت :

ـ يبدو أنه عصبي المزاج ؟

ـ ان الجميع هنا يبدون كذلك وحتى صديقه مولمان عصبي المزاج أيضا .. انه يهم بالانصراف .

ـ وماذا عنك . الم يكن من المستحسن ان تكوني الان في المصحة ؟

ـ من يدري ؟ ومن هو المسئول ؟ هلم بنا نرقص .

وظل كلير جالسا في مقعده . وحملقت ليليان فيه دهشة وهي تقول :

ـ أو أنت الاخر قلق من أجلي ؟ أو تعتقد أنه لا يجب أو ما كان يجمل بي أن ..

ـ انني لا اعتقد شيئا .. كل ما في الامر ، انني لا استطيع أن ارقص . ان احدى ساقي لا تصلح لذلك . غير أنه اذا ما كانت هذه هي رغبتك ، ففي وسعنا أن نحاول .

ونهضا معا الى حلقة الرقص . وسمع ليليان تقول له .

ـ لقد كانت جنيس سوبر غير تطيع أوامر مدير المصحة وتتبع تعليماته حرفيا .. ومع ذلك ماتت .

الفصل الرابع

كان الهدوء يسود المصحة ، وقد أخلد المرضى الى الراحة المفروضة عليهم . وكانوا مضطجعين في صمت ، في أسرتهم وفوق مقاعدهم المستطيلة ، يستنشقون من جديد رئتيهم الهواء الدافىء الذى يطارد المرض ويغالبه .

وكانت ليليان دنكرك قد اتخذت من شرفتها مكانا متعزلا لقضاء هذه الفترة العلاجية . وكان الليل قد ولى بأشباحه ، وأقبل الصباح يعيد للقلوب الفزعة نور اليقين .

ونهضت الى التيفون تجيب النداء . « بوريس — كلا ، بكل تأكيد لا — كيف تكون النهاية اذا ما فعلنا ذلك ؟ — فلنكف عن مثل هذا الحديث — يمكنك أن تزورنى — بدون ادنى شك . أجل أننى بمفردى . . »

وعادت الى الشرفة . وترددت لحظة قبل أن تصب لنفسها كأسا من الفودكا . وبعد قليل سمعت باب غرفتها يفتح فقالت :

« بوريس ، صباح الخير . هل لك فى كأس من الفودكا ؟ يمكنك أن تصب كأسا لك . »

وأقبل فولكوف ، يحمل كأسه فى يده . وحمدت الله ، لأن هذا يعنى عدم اعتزامه القاء موعظته المألوفة . وبعد أن صب لنفسه كأسا من الزجاجة الموضوعة أمامها بالشرفة ، شرب نخب صحتها قائلا :

— هل حدثك كبير الاطباء بشىء عن صور الاشعة ؟

— كلا . وبماذا يحدثنى ؟ اننى لا أريد أن أعرف شيئا .

— دعينا من هذا الآن . هل ترغبين فى كأس أخرى ؟

— كما تشاء .

وكانت تعلم أنه يمارض فى تعاطيها الخمر ، وان كان حريصا على عدم مواجهتها بهذا فى تلك اللحظة .

وبعد أن نحت كأسها جانبا ، بادرته قائلة :

— بوريس ، أننا يفهم الواحد منا الآخر جيدا .

— أحقا ما تقولين ؟

— أجل . وأنك لتدرك هذا مثل ادراكى له ، وفى هذا مبعث شقائنا .

فأجابها ضاحكا : « وبالذات حينما تهب الرياح الدافئة . »

— ان الامر غير قاصر على ذلك .

— أو حينما يحيط بنا بعض الغرباء .

— أرأيت . . « أنك تدرك ما أعنى . . ألم أقل لك اننا متفاهمان . أنك تعرف عنى كل شىء مقدما . وهذا هو مبعث قلقى . لماذا لا ألمس منك بوادر الغيرة ؟

— كيف ؟ أننى الرجل الغيور دائما .

ورنت اليه بنظرة متسائلة : « ممن ؟ من كلير غايت ؟ »

فهز رأسه نفيا . فعادت تسأله :

— اذن ، فما هو مصدر غيرتك ؟

وشاء فولكوف ألا يجيب بشىء . ترى ، فيم سوء الفهم

هذا ؟ وماذا تعرف هي عن الغيرة ؟ أن الغيرة لا تبدأ بشخص ، ولا تنتهي بنهايته . أنها شعور يبدأ بانهواء الذي يتنسمه من نحب ، ولا ينتهي أبدا ، حتى بوفاة هذا الشخص .

واستطردت ليليان تناقشه :

ـ بوريس ، من ماذا ؟ هل هوكلير غايت من أثارفيك هذا الشعور ؟

ـ لست أدري . ربما كان هذا مما حمله معه الينا .

ـ وما عساه أن يكون هذا الشيء ؟ هون عليك . أن كلير غايت سيعود من حيث أتى بعد بضعة أيام ولن يصبح أكثر من ذكرى ، تنسى أمره أخيرا .

وران عليهما صمت مطبق ، بينما كان فولكوف جالسا يتصفح كتابا بين يديه . وظلا في مجلسهما هذا ، الى أن نفذت أشعة الشمس ، فانعكست على عينيها المغمضتين وقطعت حبل الصمت بقولها :

ـ بوريس ، أنني أشعر بالرغبة في القيام بعمل جنوني . كأن أحطم هذه الحلقة الزجاجية التي حولي ، منطلقة على غير هدى ـ ولكن ما يكون .

ـ لعل الكثيرين يريدون سلوك هذا المسلك .

ـ وهل أنت منهم ؟ أأنت ممن تتنازعهم هذه الرغبة .

ـ أجل .

ـ اذن ، ما الذي يحول دون تنفيذ هذه الرغبة ؟

ـ لان تنفيذها لن يغير من الامر شيئا . لئن فعلنا ذلك ، لما شعرنا بأكثر من ان الحلقة تزداد احكاما ومناعة . وحتى اذا ما تيسر لنا تحطيمها ، فستصيبنا شظايا ، وتنزف دماؤنا حتى الموت ..

ـ وانت الاخر ؟

وتأمل بوريس الفتاة النحيلة الجالسة أمامه .. ما أقل ما تعرفه عنه ، على الرغم مما تعتقده من فهمها له ، وأخيرا ، وجد نفسه يقول لها ، وان كان يعلم بأنه لا يقول صدقا .

« لقد تقبلت مصيري مستسلما راضيا وعلينا ، قبل أن نحترق بنار كراهيتنا لواقعنا ، أن نحاول تقبله بقبول حسن .. »

وشعرت ليليان بموجة طاغية من الضجر .. ها هما يعودان الى المناقشة والى دائرتها المفرغة التي تشعر معها وكأنها أسيرة في خيوط نسيج العنكبوت .. قد يكون فيما يقوله كل الصواب ، ولكن اني يجدي هذا ؟

لماذا لا ينصرف الان ؟ ولماذا أشعر بالرغبة في لزمه على الرغم مني ؟ ولماذا أشعر بالميل الى التحقير من شأنه لان مقامه قد طال بهذه القرية ، أكثر مما طال مقامي ، ولانه يرى بقاءه من زاوية تختلف عن الزاوية التي أراه منها ؟ لماذا يثير حفيظتي أن أرى فيه الرجل السجين الذي يحمد ربه لعدم تنفيذ حكم الاعدام فيه .

ونهض فولكوف ، يحجب شعاع الشمس عنها بمظلة الشرفة ، « ايفاموزر ستغادر المصحة غدا .. أنها لبادرة طيبة .. »

ـ أعرف ذلك . لقد سبق أن غادرته مرتين من قبل .

ـ ولكنها في هذه المرة قد شفيت تماما . لقد اخبرتني رئيسة الممرضات بذلك .

وسمعت في هذه اللحظة ، صوت هدير سيارة كلير غايت قبل أن تتوقف . وتساءلت عن السبب في حضوره بها . فقد كانت هذه أول مرة يستقلها منذ يوم وصوله .

وبعد نصف ساعة ، سمعت ليليان صوت سيارة كلير فابت وهي تبتعد عن المصحة . وكان بوريس قد انصرف .

وظلت مستلقية في مقعدها برهة ، مغمضة العينين . ثم نهضت ، وغادرت غرفتها الى الطابق الارضي .

ولفرط دهشتها ، أبصرت كلير فابت جالسا فوق مقعد في مواجهة المصحة . فخرجت اليه تقول :

« لقد خيل الى أنك انطلقت بسيارتك . »

ثم جلست الى جانبه . وأجابها :

ـ كان هذا هو هولمان .

ـ هولمان ؟

ـ أجل . بعثت به الى القرية لابتياع زجاجة فودكا .

ـ مستقلا السيارة ؟

ـ أجل . لقد كان جد سعيد بقيادته للسيارة بعد هذه الفترة من الحرمان الطويل . وما أظنه الا متجاوزا بها حدود ما سألته اياه . ان بها من الوقود ما يكفي لان يتوجه بها الى زيورخ .

ـ ماذا تقول ؟ وكيف ينطلق بسيارة مكشوفة ؟ أو نسيت أنه مريض ؟

ـ كلا ، لم انس . انني اعتقد أن هذا سيرفع من روحه المعنوية .

ـ واذا ما أصيب بنزلة برد ؟

ـ انه متدثر بثياب ثقيلة .

ـ أو لا تدري ماذا تعني النكسة له ؟ ان مجرد تعرض اي منا لنزلة برد قد تكون فيها نهايته .

فرمقها كلير فابت بنظرة فاحصة . وبعد أن ملأ عينيه من جمالها ، انبرى قائلا :

« ولماذا لا تطبقين هذه المبادىء على نفسك قبل أن

تنصحي بها غيرك . أما كان ينبغي لك أن تذكري هذه الارشادات ، حينما كنت ترتدين ثوبا خفيفا للسهرة وحذاء من الساتان ، في سهرة فندق بالاس ، وتغادرين فراشك مخالفة بذلك أوامر الاطباء . ان كل ممنوع مرغوب ، مهما كانت العواقب . »

وبعد أن أطرق قليلا ، رفع رأسه مستطردا :

ـ انك ستجدين فيه الليلة رجلا آخر .

ـ انه سيكون الليلة في فراشه يعاني من آثار الحمى .

ـ لا أعتقد أن الامر سيصل به الى هذا الحد . ومع ذلك أصبح رجلا عاجزا ، وهو لم يزل بعد في مقتبل العمر . ان الحالة النفسية بالنسبة للمريض من الاهمية بمكان .

وادارت ليليان رأسها ناحيته في حركة حادة ، وكأنه قد صفعها بقوة . أو لان هولمان مريض فهو في نظره من العاجزين ؟ هذا الاحمق الغر المأفون أو هذا هو رأيه « ان الحمى البسيطة هنا قد تنقلب الى التهاب رئوي حاد . غير أنني لا أعتقد أن هذا يعنيك في كثير أو قليل . ان كل ما ستقوله حينئذ هو أن هولمان كان سعيد الحظ بأن قضى نحبه بعد أن أشبع رغبته في الجلوس الى عجلة قيادة سيارة سباق . »

وبعد أن انتهت من قولها هذا ، شعرت بالاسف لمصدر منها . وكانت لا تدري سببا لما استبد بها من غضب .

وعقب كلير فابت على ما سمعه منها باسما :

ـ ان لك ذاكرة واعية ، فلتهدئي من روعك . انه لن يستطيع الانطلاق بها بالسرعة المعروفة عن سيارات السباق ، في هذه المنحنيات المكسوة بالجليد .

وطوقها بذراعه . ولاذت بالصمت ، جالسة في

سكون ، تستمع الى صدى صوت محرك السيارة الذى تردده جنبات الوادى . ثم التفتت اليه قائلة :

ـ هل كنت تفعل ذلك لو كنت فى مكانه ؟

ـ لست أدرى . ان المرء لا يستطيع أن يحكم على الامور حكما صحيحا ، على حين لم يتعرض لتجاربها .. قد أسلك مسلكه مدفوعا بالرغبة فى التعلق بأهداب الحياة . وقد لا أسلك هذا المسلك ، مستكينا لحكم القدر ، متذرعا بالصبر على الزمن . ان الانسان لا يدرى من أمر نفسه شيئا ، مادام بعيدا عن التجربة نفسها .

وعاد صوت محرك السيارة ليقترب ثانية . فاردف كلير فايت قائلا :

« انه يعود أدراجه . »

ـ أجل . وهل ساءك منه أن يسرع بالعودة ؟

ـ كلا . ان كل ماكنت أريده هو أن أتيح له فرصة قيادة السيارة ، لارفع من حالته المعنوية كما سبق أن قلت لك .

ورأت ليليان أنه من الخير لها الا ترى هولمان عند عودته . فنهضت مسرعة وهى تقول :

ـ يجب ان ادخل قبل أن تكتشف رئيسة المرضات غيابى . متى تعتزم القيام بجولة بالسيارة ؟

ـ فى أى وقت تشائين .

● ● ●

كان اليوم يوم أحد ، وكانت أيام الاحاد بالمصحة فى نظر ليليان ، أشد وطأة من بقية الايام .

وهبطت ليليان الدرج الى قاعة الطعام لتناول طعام العشاء ، متحدية جميع الاوامر ، بعد أن تناولت كأسين

من الفودكا فى غرفتها . وحرصت على ارتداء أحسن ثيابها . ان العناية بالملبس كثيرا ما يكون لها أثرها فى حالة الانسان النفسية . غير أنها على الرغم من محاولتها هذه ، لم تستطع أن تتخلص مما كانت تشعر به من انقباض نفسى ، لم تدرك له سببا ، قبل أن تخطو الى قاعة الطعام .

وأخيرا أدركت السبب فيما اعتراها من انقباض . فقد كانت القاعة غاصة بالنزلاء ، والى مائدة فى الوسط ، كانت تجلس ايفاموزر ، وحولها ستة من الاصدقاء . لقد كانت هذه الامسية هى الاخيرة لها بالمصحة ، بعد رحيلها فى اليوم التالى .

وأرادت ليليان أن تقفل راجعة لاول وهلة . ثم وقع نظرها على هولمان جالسا بمفرده الى مائدة قريبة من مائدة الامريكيين الثلاثة ، الذين كانوا يترقبون وفاة مانويلا . ودعاها هولمان للجلوس . ثم بادرها قائلا :

ـ لقد قمت اليوم بقيادة سيارة كلير فايت . هل علمت بذلك ؟

ـ وهل علم بهذا سواى ؟

ـ من تعنين ؟

ـ رئيسة المرضات ؟ أو مدير المصحة ؟

ـ كلا . وماذا يعنينى علمهم بذلك فقد شعرت بمالم أشعر به منذ عام مضى .

ـ أرى أن الجميع الليلة فى حالة معنوية مرتفعة . ماذا ترى فيما يدور من حولك ؟

وأومأت برأسها فى اتجاه ايفاموزر ، التى كانت تجلس بين أصدقائها الحاسدين لها ، على الرغم مما يحيطونها به من رعاية وعطف . ومالت ليليان ، هولمان :

ـ كلا. انه مشغول بزيارة غيرمتوقعة هذا المساء. ومهما يكن من أمر، فلا يوجد ما يضطره الى الحضور كل مساء. ان المصحة ليست بالمكان المرغوب فيه الى هذا الحد.

ـ ولماذا لم يرحل بعد؟

ـ انه راحل فعلا، بعد بضعة أيام. يوم الاربعاء أو الخميس.

ـ من هذا الاسبوع؟

ـ أجل. أعتقد أنه سيرحل ويصطحب معه ضيفه.

ولم تعقب ليليان بشيء. وكانت لا تعرف ما اذا كان هولمان قد افضى اليها بهذه المعلومات عن عمد من عدمه وآثرت الا تسترسل في الاستفسار منه عما كانت ترغب فيه من مزيد. وقالت له أخيرا:

ـ ألا يوجد معك قليل من الخمر؟

ـ ولا قطرة. لقد أعطيت ما تبقى لدى من الجين الى شارل ناي، بعد ظهر اليوم.

ـ ألم تبق زجاجة من الفودكا صباح اليوم؟

ـ أعطيتها لدولوريس بالمر.

ـ لماذا؟ هل قررت أن تصبح مريضا نموذجيا؟

ـ بعض الشيء.

ـ ولكنك كنت صباح اليوم أبعد ما تكون عن ذلك.

ـ لقد صار صباح اليوم في عداد الماضي.

ـ ترى مع من سأخرج ليلا بعد رحيل كلير فايت؟

ـ غيره كثيرون. ومهما يكن من أمر، فان كلير فايت لم يزل هنا. ألن يحضر بوريس الليلة؟

ـ كلا. وبوريس ليس بالرجل الذي يصلح للخروج معه ليلا. أنت تعرف شدة تزمته. يبدو أنه لا معدى لي

الليلة عن العودة الى فراشي.

ـ ماذا بك؟ هل من جديد؟

ـ انه الدائرة الخبيثة من السأم والضجر. ترى متى تنتشلنا السماء منها؟

● ● ●

استكملت الممرضة دورة مرورها الليلي. وكانت ليليان مضطجعة في فراشها تحاول القراءة عبثا. وبعد قليل ألقت بالكتاب جانبا. وعادت مرة أخرى لتواجه الليل بطوله ـ الليل بظلامه الحالك، وسكونه المخيم، ومخاوفه المجسمة. ثم يطوف بها ذهنها المكدود، الى أن يستقر أخيرا على ذاتها. على هذا الكائن البشري. ليليان دنكرك، التي تعلم أن نصيبه من الدنيا هو أقصر حياة.

وسمعت طرقا على الباب. وكان الطارق شارل ناي الذي جاء يقول لها هامسا:

«ان الميدان خال.. هلم بنا الى مأدبة دولوريس لمناسبة رحيل ايقاموزر..»

ـ وما هو الداعي؟ ولماذا لا ترحل في سكون؟

ـ اننا نحن الذين خلقنا من رحيلها مناسبة. اننا نتلمس الاسباب.

ـ لقد حصلتم على بغيتكم في قاعة الطعام.

ـ لم تكن هذه المأدبة سوى ذر للرماد في عين رئيسة الممرضات. هيا بنا. ولا تستسلمي لافكار الليل السوداء.

ـ ليست بي رغبة للاشتراك في حفل ما.

ـ هيا، هيا. ان الوحدة قاتلة. ستجدين بالحفل

الكثير من النزلاء . ان العجز لم يقعد بعضهم عن الاشتراك في وداع الانسة موزر ، لا لمجرد تكريمها . بل لانه وجدها فرصة سانحة للتسرية عن نفسه ، وابعاد ما ينوء به مما اثقل كاهله من قسوة القدر . فلتنسى ما يقض مضجعك ، ولتقبلي على الحياة برهة من الزمن .

وكانت دولوريس بالمر تقيم بطابق اسفل الطابق الذي به غرفة ليليان . وكانت تقيم بجناح مكون من غرفة نوم ، وغرفة جلوس ، وغرفة استحمام .

واستقبلتها دولوريس مرحبة ، وهي تقول :

« لدينا زجاجتان من الفودكا . أين تريدين أن تتخذي لك مقعدا ؟ »

وتلفتت ليليان فيما حولها . ولم يكن الحشد غير مألوف لديها . وكان الحضور أشبه بالاطفال الذين يختلسون لحظات لهوهم في ساعة متأخرة من الليل . وكانت دولوريس بالمر ترتدي ثوبا صينيا طويلا . وكان جمالها من هذا الجمال الحزين ، الذي ما كانت لتأبه له أو تدركه فيها وزهوا . فقد كانت ممن يتركن أنفسهن على سجيتها ، لا يعنيها من دنياها سوى أن تعيش في نعيم من الترف والاستمتاع .

وكانت ايفاموزر تجلس بجوار النافذة ، تتطلع منها . وبدا عليها أنها قلقة واجمة . واثبرت ماريا سافيني تقول لليليان :

« انها حزينة . هل تصدقين هذا ؟ »

ـ وما هو السبب ؟

ـ سليها عن السبب . انه أبعد ما يكون عن الخاطر . أنها تقول ان هذه المصحة أصبحت بمثابة دارها .

فاثبرت ايفاموزر تقول منتحبة : « أجل ، انها دارى .

لقد كنت جد سعيدة هنا . لقد أصبح لى أصدقاء . اننى راحلة الى حيث لا أعرف أحدا . »

وران الصمت على الجميع . وأخيرا انبرى شارل ناى معقبا : « ايفا .. يمكنك عدم مغادرة المصحة اذا ما أردت . ما أحسب أن أحدا سيعارضك في هذا . !

ـ بل يوجد من سيعترض ! انه والدى ! ان اقامتى هنا تكلفه كثيرا . وهو يريد منى أن أجد لى عملا . أننى لم أعد أصلح لعمل ما . لقد أنستنى اقامتى هنا ما كنت أعرفه . ثم من ذا الذى يلحق بخدمته فتاة كانت نزيلة المصحات؟

واقبلت دولوريس بالمر تحمل الى ليليان كاسا من الفودكا ، قائلة وهي ترمق ايفاموزر بنظرة امتعاض :

ـ هذه المرأة . لا تستطيع أن تسيطر على أعصابها !

ـ سأنصرف . فلا قبل لى بهذا المشهد .

فاعترض شارل ناى على ما سمع منها قائلا :

ـ كلا ، لا تنصرفى . اننا فى أمس الحاجة للشموع المضيئة من طرازك وطراز دولوريس . انكما بمثابة النور المشع في ظلام حياتنا . فلتسمعينا شيئا من انشادك !

ـ أى نشيد ؟ نشيد الاطفال الذين لن يولدو !

ـ بل نشيد السحب التى ستنقشع الى غير رجعة ، أو ان شئت ، نشيد المبعدين الى الجبال . اننا نريد أن ننال نصيبا من اللهو والعبث . هذا خير من البكاء .

فعقبت دولوريس على هذا بقولها : « لقد أسرف شارل فى الشراب . فلنسمع الاسطوانات الامريكية الحديثة » .

ونهضت ليليان عن مقعدها . وما أن فعلت ذلك ، حتى فتح الباب لينفرج عن رئيسة الممرضات التى وقفت به تصيح في غضب :

« هذا هو ما توقعته ! سجائر ! وخمر ! وعيث ولهو ومجون ! ان كلا منكم كان يجب أن يغط فى نومه الآن · »

وانبرى أحد المرضى قائلا :

« بل كان من الواجب أن يقضى من هو على شاكلتى نحبه منذ أعوام · اننا نستعير الزمن تلك الايام التى نحياها · ان من كان هذا هو شأنه ، يضع لنفسه قواعد خاصة · »

— هكذا ؟ هل لى أن أعرف شيئا عن ماهية هذه القواعد ؟

— أن نعيش أيامنا بالعرض ، ونستمتع بكل دقيقة فيها ، لانها كل ما تبقى لنا من دنيانا · أما كيف يكون هذا ، فانه متروك لرغبة كل حسبما يشتهى ويهوى ·

— من واجبى أن اسألك الذهاب فورا الى فراشك · من الذى ساعدك على الحضور الى هنا ؟

— حسن ادراكى وعمق تفكيرى ·

وأعان الرجل بعضهم على الجلوس فى مقعده المتحرك ، وخطت ليليان متطوعة بدفع مقعده وما أن وصلت به الى باب الغرفة ، حتى سمعت رئيسة الممرضات تؤنبها قائلة :

— اذن ، فأنت من أتى به الى هنا !

وواصلت ليليان دفعها للمقعد المتحرك الى الردهة · وتبعها شارل ناى والاخرون ، كأطفال كشف أمرهم ·

وبعد نصف ساعة ، زارت ايفاموزر ليليان بغرفتها ، وسألتها :

« هل حملوا فراشى الى غرفتك ؟

— كلا ·

— ترى أين يمكن أن أجده ·· ؟ لقد أفرغوا غرفتى مما

كان بها ، بما فى ذلك جميع ثيابى · ترى أين توجد حاجياتى ؟

وكان اخفاء حاجيات « المسرحين » من المصحة دعابة يلجأ اليها النزلاء ، فى آخر ليلة له بالمصحة ·

وأردفت ايفاموزر قائلة : « انها لدعابة سخيفة ! »

وشعرت ليليان بأنها يجب أن تفعل شيئا ، فقالت لها :

— توجهى الى البهو ، واختبئى بجوار باب المصعد الى أن تشاهدى شارل ناى خارجا منه · ولتذهبى فورا الى غرفته · واتصلى بى تليفونيا من هناك · وقولى أنك مستعيشين بثيابه ما لم ترد لك حاجياتك ·· هل فهمت ؟

— أجل · ولكن ·

— اننى واثقة من أن شارل ناى يعرف مكانها ·

واتصلت ليليان تليفونيا بشارل ناى ، وأوصت لايفاموزر ان تنصرف · ثم دعته لزيارتها بغرفتها ·

وأقبل شارل بعد بضع دقائق · واستفسرت منه ليليان عما فعلته بهم رئيسة الممرضات · فأجابها :

— لقد حلت الازمة حلا موفقا بفضل كياسة دولوريس ·

— انها خير من يتولى مثل هذه الامور · وقد انصرفت الرئيسة راضية مقتنعة ·

ودق جرس التليفون · وكان صوت ايفاموزر مرتفعا بحيث سمع شارل كل كلمة صدرت عنها · ورددت ليليان على مسامعه ما هددت به وتوعدت ايفاموزر ·

ومدت له يدها بسماعة التليفون ، سائلة اياه أن يهدىء من ثورة ايفا ، واتجهت الى النافذة تطل منها ·

وتطلعت بعينيها الى فندق بالاس ، الذى كانت نوافذه لم تزل مضاءة · ان هذا الضوء لن يعود ينبعث من تلك النوافذ بعد أسبوعين أو ثلاثة على الاكثر · اذ سيعود

السياح من حيث اتوا، ويخلفون وراءهم الفراغ والملل.
وسمعت صوت اعادة سماعة التليفون الى مكانها ،
وشارل يقول معقبا : « هذه المعتوهة ! »
وانصرف لا يلوى على شيء .

اسدلت ليليان ستائر غرفتها ، وراحت تبحث عن العقار المنوم . تستعين به على مغالبة ما تخشاه من ارق الليل الطويل . وخيل اليها انها سمعت صوت سيارة كلير غابت . أن فى وسعه ان ينقذها من عذاب هـذا الليل الطويل . غير انها لا تستطيع أن تتصل به تليفونيا . لقد قال هومان ان لديه زائرا . من عساه ان يكون ؟ انراه احدى نساء باريس أو ميلانو أو مونت كارلو ! الى الجحيم بكلير غابت! أن هى الا بضعة ايام يرحل بعدها . ليس أمامها سوى الرضوخ لما قدر عليها، وليس عليها الا أن تسلم بالامر الواقع . أو ليس هذا ما نصحها به بوريس ! غير أن هذا الخضوع والاستسلام يعني لديها الضياع . ان الايام تمضي والاعـوام تسرع . ثم استرسلت فى البكاء .. الذى لا يغير من الامر شيئا وانهمرت عبراتها أسى واشفاقا .

● ● ●

الفصل الخامس

كان الشيخ مستلقيا فى فراشه ، وكأنه قطعة من أغطيته . وكان وجهه تاحلا ، ذابلا ، وعيناه غائرتين .

كان يدعى ريختر ، فى الثمانين من عمره ، قضى عشرين عاما منها بالمصحة . شغل فى أول قدومه جناحا من غرفتين ، ثم انتقل الى غرفة بالطابق الاول ، وأخيرا ، وبعد أن اضطرته الى ذلك حالته المالية ، اقام بغرفته الضيقة التى لا تكاد أن تتسع لفراشه والمنضدة الصغيرة بجواره . وقد تمكن الرجل بقوة عزيمته من مغالبة الموت طوال عشرين عاما .

وكانت ليليان جالسة بجوار فراشه . واشار باصبعه الى رقعة الشطرنج فوق المائدة قائلا :

ـ تأملى هذه اعجبى لهذه الحركة . كان على الرجل ان يدرك أن تحريك الفارس سيمكننى منه . ترى ماذا دعاه ؟ لقد الفت من ربنيه خلاف ما أرى منه الان . لقد كان من خيرة لاعبى الشطرنج . هل كنت تقيمين هنا ابان الحرب ؟

ـ كلا .

ـ لقد كان حضوره ابان الحرب ، في عام ١٩٤٤ ، على ما أذكر . وكان تدومه مصدر سروري . اذ كنت أمارس هوايتي هذه عن طريق المراسلة بنادي الشطرنج في زيورخ ، فلم يكن ثمة من يمارس هذه الهواية من بين نزلاء المصحة .

غير أن سعادة ريختر بقدوم ريتيه لم تتم . فقد كان ريتيه فرنسيا أطلق سراحه من معسكر اعتقال ألماني . وما أن علم بأن ريختر ألماني الجنسية ، حتى رفض أن يواصل مبارياته معه . ان العداء القوي المتأصل في النفوس ، لا يتوقف بدخول المصحات .

وتمكن السأم من نفس كل منهما . وتبع كل في فراشه مصرا على موقفه من الاخر . وأخيرا وجد أحد الزنوج من نزلاء المصحة حلا لهذه المشكلة .

واتصل بكل من ريختر وريتيه ، يقترح عليهما ممارسة هوايتهما عن طريق التليفون ، على أن يكون هو الوسيط بينهما .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بقليل ، قضى الزنجي نحبه . واضطرت الظروف المالية كلا من ريختر وريتيه الى الاقامة كل في غرفة لا يوجد بها تليفون . وكان ريتيه بالطابق الثالث ، وريختر بالطابق الثاني واضطلعت رئيسة الممرضات بمسئولية الوساطة بين الخصمين ، اللذين لم يعرفا شيئا عن وفاة الزنجي . وسار كل شيء على ما يرام ، الى أن استطاع ريتيه أن يغادر فراشه . وكان أول ما فعله ، محاولته زيارة صديقه الزنجي . ومن هنا ، اتضح له ما كان خافيا .

ولكنه كان قد عرف ، في نفس الوقت ، ما نزل بأسرة ريختر في ألمانيا من ويلات ، نتيجة للغارات الجوية .

وخفف هذا من غلواء مشاعره العدائية ، واستأنف مبارياته مع ريختر . غير أن حالة ريتيه الصحية اضطرته الى ملازمة الفراش ثانية ، مما استتبع قيام بعض المرضى بدور الوسيط بينهما . وكانت ليليان من بين هؤلاء . ثم كان أن لفظ ريتيه انفاسه الاخيرة منذ ثلاثة أسابيع . واجتمعت كلمة المحيطين بريختر على عدم احاطته علما بوفاة الفرنسي .

وكان لرئيسة الممرضات المام بهذه اللعبة ، ورأت أن تقوم مقام ريتيه في الاشارة على الوسطاء بما ينقل من قطع الشطرنج . غير أن ريختر ، الذي لم يكن يعلم بوفاة خصمه ، كان آسفا لما تبينه من تخلفه فيما كان يحذقه من قبل .

وسأل الرجل ليليان ، التي أتته تحمل الحركة الاخيرة من رئيسة الممرضات : ، الا ترغبين في تعلم هواية الشطرنج ؟ في وسعي أن أعلمك اياها في أقصر وقت ..

وهزت ليليان رأسها نفيا . ولمحت الاسى في عيني الرجل الزرقاوين . وعاد يلح عليها الى أن قالت :

ـ انني لا أهوى الشطرنج ، ولم أوت من الصبر ما يعينني على ممارسته .

ـ ان الشطرنج هو مفتاح الصبر . انه ملاذك حينما لا تستطيعين الى النوم سبيلا . حتى القراءة ، لن تعينك على مغالبة أرق الليل الطويل . لقد لجأت الى شتى الوسائل . ولم أجد سوى وسيلتين . الاولى : أن يشاركك البعض وحدتك . ولذلك تزوجت ، غير أن زوجتي توفيت منذ بضع سنين ..

وسألته : ـ والثانية ؟

ـ حل معضلات الشطرنج .. ان الشطرنج يبعث الراحة في الذهن المكدود ، والاستغراق فيه يبعد عنه شتى الخواطر . أليس هذا هو كل ما نبغي ؟

ـ بلى ، انه كل ما نبغي في مكان مثل هذا . كم قضيت هنا من عمرك ؟

ـ عشرين عاما . انها عمر بأسره .

ـ أجل . حياة رتيبة تكرر الايام فيها نفسها وتتشابه ، بحيث تبدو في نهاية كل عام ، وكأنها يوم واحد ان مثل هذه الفترات من حياة الانسان ، من الظلم ان تعد من عمره . انها قطعة منفصلة تقتطع من حياته ، ويلقى بها بعيدا ، أو هذا على الاقل ما يجب أن يكون . ولذلك قررت أن أغادر هذه المصحة .

ـ وهل تم لك الشفاء من مرضك ؟

وأدركت أنها اندفعت فيما صرحت به . فاستدركت قائلة :

« انني راحلة لفترة قصيرة فقط أعود بعدها لمواصلة العلاج . هل تريد مني أن أحمل لربيبه حركة القطعة التالية ؟ »

ـ لا جدوى من ذلك . قولي له أن يبدأ من جديد .

ـ فليكن .

واستبد القلق بليليان طوال اليوم ، وبعد الظهر . وأغرت احدى الممرضات أن تطلعها على صور الاشعة الاخيرة . واستجابت هذه لها ، معتقدة أن المريضة لن تستطيع أن تتبين شيئا من هذه الصور . غير أن ليليان سألتها :

ـ هل يمكن أن أستبقيها معي قليلا

ـ هذا مخالف للاوامر ، ومجرد اطلاعك عليها ضد التعليمات .

ـ ولكن الطبيب طلعني عليها دائما ، ويقوم بشرح ما فيها . ولقد نسي أن يفعل ذلك في هذه المرة .

ولم تجد الممرضة بدا من الاستجابة لالحاح ليليان . فوضعت الصور فوق أحد المقاعد قائلة :

ـ سأعود بعد بضع دقائق لاستعادتها . انني ذاهبة الى الغرفة رقم ٢٦ . لقد رحلت شاغلتها .

ـ رحلت

ـ أجل ، منذ ساعة .

ـ من عساها أن تكون

ـ فتاة من بوجوتا ، بأمريكا الجنوبية .

ـ مانويلا

ـ أجل . لقد قضت في هدوء .. كانت وفاتها متوقعة .

ـ ولماذا تقولين رحلت ؟ فيم هذا التلاعب بالالفاظ ؟ . انها لم ترحل ! لقد ماتت ، وانتهى أمرها ! رحلت ! يالتورية وذات التحرج في هذه المصحة .

ـ أجل يا سيدي أجل .. ماتت .

ـ يمكنك ان تتصرفي . وحينما تعودين ستجدين صور الاشعة في انتظارك

ـ حسنا .

وأسرعت ليليان الى النافذة بصور الاشعة تمعن النظر فيها ، ولكنها لم تستطع أن تتبين منها شيئا . وكان مدير

المستشفى يؤشر على بعض مواضع من الصور السابقة بالمداد الاحمر غير أنه لم يفعل شيئا من هذا القبيل فى هذه الصور ٠

ان هذه الصور تعنى لديها الحياة أو الموت ـ انها تعنى الصحة أو المرض ٠

وراحت تتفرس فيها محاولة ان تستشف منها شيئا ٠ وتبينت أن ثمة بقعا أكثر سوادا مما يحيط بها ، وانها أكبر اتساعا مما كانت عليه فى صور الاشعة السابقة ٠ وعادت لتضع الصور فوق المنضدة ، وانجهت الى المرآة تتفرس فى وجهها ٠ هذا الوجه الذى يبدو وكأنه غريب عنها ٠٠ انها لتكاد أن تنكره بتحوله وهالاته السوداء ٠

وسمعت صوت المرضة التى أقبلت قائلة : ـ ماذا

ـ كما ترين ! أتأمل وجهى فى المرآة ٠ لقد فقدت من وزنى ثلاثة أرطال فى الشهرين الاخيرين ٠

ـ انك جد قلقة ٠ ويجب أن تتناولى من الطعام كميات أكثر ٠ يجب ان تهدأى بالا وتؤمنى بقرب شفائك ٠

فاستدارت ليليان تواجهها ثائرة ، « لماذا تصرون هنا على معاملتنا معاملة الاطفال ؟ أو تعتقدون اننا نصدق كل ما تقولون اليك هذه الصور ٠٠ تأمليها جيدا ! وانك لتعرفين خيرا منى ماذا تعنى ٠٠

ـ وهل استطعت أن تتبيني منها شيئا

ـ أجل ٠٠ لقد أدركت منها كل شىء ٠ ان حالتى لم تعد سرا مستغلقا ٠ لقد صارحنى الطبيب بأن حالتى الصحية لاتتحسن وانها تتدهور ٠٠ لماذا تحاولون التمويه على المرضى

ـ لان الكثيرين منهم لا يحتملون مواجهة الحقائق ٠

ـ ولكننى ممن يشعرون بالقدرة على ذلك ٠

ـ هذا واضح ، بعد اطلاعك على السر واكتشافك لما تضمنته صور الاشعة ٠ هونى عليك واعقدى العزم على اتباع أوامر الاطباء وارشاداتهم ٠

ـ سأعمل بمشورتك من الان فصاعدا ٠

ـ وبهذا تستعيدين صحتك وما فقد من وزنك ٠

وكانت ليليان تود فى قرارة نفسها ، أن لو سمعت من المرضة ما يكذب حدسها ٠

وسمعت طرقا على الباب ، أعقبه دخول هولمان قائلا :

ـ سيسافر كلير فايت غدا ، والليلة من الليالى القمرية ٠ ماذا ترين فى قضاء الليلة معا ؟

ـ لست أدرى ٠

ـ ان الليلة هى الاخيرة له بيننا ٠

ـ متى سيرحل ؟

ـ بعد ظهر الغد ٠

ـ وهل سيسافر بمفرده ؟

ـ أجل ، هل توافقين على اقتراحى ؟

ولاذت ليليان بالصمت ٠ ان رأسها يضطرب بالكثير من الفكر والخواطر ٠ وسمعته يستطرد قائلا :

ـ انها ليلة وداع يجب أن نمضيها معا ٠٠ ان المناسبات لدينا قليلة ٠

وانصرف هولمان وتركها لخواطرها ٠

هذا الغد ـ لماذا يفترق عن غيره ؟ فى مساء هذا الغد سيكون كلير فايت قد رحل ، وتعود الحياة المملة الى سابق عهدها ٠ كان بيت الانزلاق مفتوحا اثناء الشتاء ، وكانت فيه فرقة موسيقية أعدها فندق بالاس ٠ واقبل الرواد فى ثياب السهرة ، وكانت دورلوريس ترتدى ثوبا

اصبحتي الطراز تتدلى منه شرائط الدانتلا ، أما ليليان دانكرك فكانت تلبس جاكتتها المصنوعة من الفراء .

وكانت ليليان بادية الانفعال ، تصطخب الاثارة في اعماقها .. وعند قمة التل تهدر العاصفة . ومضت ليليان تتطلع الى القمر الذي يطل بوجهه من بين السحاب ، ثم يعود ليختفي ، وسألها كلير فايت عما تفضله من مشروب في هذه الليلة . فاجابته بانها تفضل كأسا من النبيذ . وبعد أن أحضر الساقي الكؤوس ، بادرته بسؤالها :

ـ متى ستسافر غدا ؟

ـ قبل طلوع الظلام .

ـ الى أين ؟

ـ الى باريس ؟ هل انت راحلة معي ؟

ـ أجل .

فضحك كلير فايت . اذ حسبها تمزح وعقب على ذلك قائلا :

ـ حسنا . غير انك يجب الا تكثري من حقائبك . ان سيارتي لا تتسع للكثير منها .

ـ لن أحمل معي سوى حقيبة واحدة . أما الباقي فيمكن ارساله الى عنواني . اين ستتوقف بعد رحلتنا ؟

ـ سأحرص على الخروج من منطقة الجليد التي لا تحبينها ، ثم نواصل طريقنا الى تيشينو . والى بحيرة ماجيور ، حيث نجد الجو ربيعا .

ـ وبعد ؟

ـ الى جنيف .

ـ ومن ثم ؟

ـ الى باريس .

ـ الا يمكن أن نتجه رأسا الى باريس ؟

ـ حينئذ ، يكون علينا ان نبدأ سفرنا الليلة . لان المسافة أطول من أن تقطع في يوم واحد .

ـ وهل يمكنك أن تقطع المسافة من بحيرة ماجيور الى باريس في يوم واحد ؟

والى هذه المرحلة من الحديث ، لم يكن كلير فايت ليحمل الامر محمل الجد . ولكن هذه الاسئلة تعني أنها جادة فيما تقول فجعل يتفرس فيها مستطلعا ، ثم قال :

ـ ان قيادة يوم بطوله ، يمكن أن نبلغ بها مقصدنا . ولكن فيم العجلة ؟ الا تريدين أن تمتعي ناظريك بحقول الزهور المحيطة بجنيف ؟ انها مما يحرص الجميع على مشاهدتها .

ـ يمكنني القاء نظرة عليها عبر الطريق .

وأقبل هولمان يهمس قائلا :

ـ رباه ! انه مدير المصحة .

ـ أين هو ؟

ـ عند الباب .. من كان يتوقع هذا ؟ ماذا نحن فاعلون ؟

ـ لا شيء .

ـ الا يستحسن ان نتسلل خارجا ؟

ـ كلا .

وكان بين الموجودين البعض من نزلاء المصحة . وساد بينهم جميعا الاضطراب ، واستبدت بهم الحيرة . وجلس من جلس منهم ، واستبدل آخرون مقاعدهم بمقاعد أكثر أمانا . وتأمل كليرفايت ليليان مبتسما ، وكأنه يستفسر منها عما اذا كانت تريد ان تحذو حذو غيرها وتستبدل مقعدها بآخر أحسن وضعا حتى يكون متواريا ولكنها هزت رأسها نفيا . وتطلعت ليليان بعينيها صوب مدير

المصحة تتأمل وجهه الشاحب وعينيه الباهتتين وهو يجول بهما بين الموائد محاولا أن ينفذ بنظراته خلال زحام القاعة ٠

ونهضوا جميعا مغادرين القاعة ، لمشاهدة هواة الانزلاق على الجليد فى هذه الليلة القمرية الجميلة ٠ ومشت ليليان الى جانب كلير فايت ، بخطوات متئدة ، متجاهلة وجود مدير المصحة ، ووقفت من مكانها تشاهد هواة الانزلاق ، وقد حملوا مشاعلهم فى أيديهم ٠

وسألت ليليان كلير فايت : « متى سترحل غدا ؟!

ـ متى تشائين فى أية ساعة تفضلين ؟ قبل حلول الظلام أو اذا أردت بعده ٠ الامر متروك لك ٠

ـ أن الامر عندى سيان ٠ وسأكون على أتم استعداد فى الساعة التى تحددها ٠

ـ حوالى الساعة الرابعة مثلا ٠

ـ فليكن ٠ ستجدنى فى انتظارك ٠ ولا يشغلنك أمرى ٠ فما عليك الا أن تبلغ بى باريس ، ثم تتركنى أمضى ٠٠

ـ تمضين حيثما شئت ، على غير هدى ٠

ـ أجل ٠٠ هو ما ذكرت ٠

ـ لك ما تشائين ٠

وشعرت بأنها تهتز من قمة رأسها الى أخمص قدميها ٠ ورأحت تمعن النظر فى وجه كلير فايت ٠٠ انه لا يثقل عليها بأسئلته ، ولست مضطرة الى تبرير شىء من تصرفاتى ٠ انه لا يبالى بما عقدت العزم على القيام به ، ويأخذ كلامى على علاته ، أنه لا يثير زوبعة حول مرضى ، ولا يجعل منه مشكلة مستعصية الحل ٠ وشعرت لاول مرة منذ مرضها ، بأنها تخلصت من عبء ثقيل كانت تنوء به ٠ وقد بعث هذا الخاطر فى نفسها الشعور

بالسعادة بصورة لم تألفها من قبل ، وكأنها اجتازت حدود منطقة كانت محرمة عليها ٠ وأنها لترى الحياة ممتدة أمامها ، بكل ما فيها من بهاء ورونق ٠ وأنها لتقف الان عند نقطة البداية ، وقد حملت مشعل الوجود الحق ، فى طريقها الى ما يضطرب فيه الاصحاء من حياة عادية ٠ أن أقصى ما يصبو اليه الانسان ، هو أن يثخبر ميتته ، حتى لا يدهمه الموت كما يدهم قارا ويباغته ٠

الفصل السادس

وجدها فولكوف ، فى صباح اليوم التالى ، منهمكة فى اعداد حقائبها ·

« أنك تعدين حقائبك ؟ وفى ساعة مبكرة ؟ » ·

ـ أجل · كما ترى ·

ـ ولماذا ؟ انى لاشفق عليك من هذا العنف ·

وذلك لانه كان قد رآها تفعل هذا من قبل غير مرة ، ثم تعود لتعدل عن رايها ، بعد أن تهدأ نفسا ·

وسمعها تقول له فى لهجة قاطعة :

ـ بوريس ، استمع الى .. قلت لك اننى جادة هذه المرة ·

وراح يتابع ما تودعه حقائبها من حاجيات · فرددت قولها :

« اننى راحلة فعلا · أراك لا تصدقنى ! »

فأومأ برأسه قائلا : « أجل ، أجل · انك راحلة غدا · وبعد الغد ستعيدين حاجياتك الى مكانها ، وأقوم بمساعدتك فى افراغ حقائبك · فيم كل هذا العناء ؟ والى متى عدم الاستقرار ؟ !

ـ بوريس ، استمع الى .. قلت لك اننى جادة هذه المرة · اننى راحلة الى غير رجعة ·

ـ غدا ؟

ـ كلا اليوم · وفى رفقة كلير فايت ·

ـ فى رفقة كلير فايت ؟

ـ أجل .. سأرحل معه فقط ، لقد انتهزت فرصة رحيله وسألته أن يصحبنى معه الى حيث يمضى كل منا فى سبيله · هذا ما اريد أن تفهمه · اننى راحلة لمجرد رغبتى فى ذلك ، لا لسبب آخر · لقد ضقت ذرعا بمقامى هنا · ضقت ذرعا بكل شىء ·

ـ لن اسكنت من الرحيل ·

ـ بل ستدعنى افعل ما أريد · لقد حاولت أن أكتب لك موضحة الامر ، ولكننى عجزت عن التعبير عما تعتمل به نفسى ·

ان هذه الحقائب المعدة للرحيل ، بمثابة السهام القاتلة المصوبة الى قلبه . ان هذه الثياب وتلك الاحذية لم تعد مصدر سحر وجاذبية ، كما كان يراها من قبل · ان هى الان ، بعد أن أعدت للرحيل ، الا مصدر ألم لغياب من يحب ورحيلها المفاجىء عنه . وعاد يردد : « لن ترحلى ! » .

ـ كنت أخشى هذا الموقف · ولذلك كنت أزمع الرحيل دون أن أكاشفك بعزمى · أرجو ألا تزيد الموقف صعوبة ، وأن تجنبنى مرارة الشعور به !

هذا هو ما يصدر عنهن دائما · وهذا هو ما يرددنه فى مثل هذه المواقف وهن الخالقات لمثل هذه المواقف ، المتسببات فى وجودها · أجنبها مرارة الشعور بالموقف ، وهى التى قررت أن تمزق قلبى بقرار رحيلها · ألم يدر

بخلدها ماذا سيكون من شأني وهي تسألني أن أرفق بها ؟

يا لأنانية المرأة !

ـ انك راحلة مع كلير فايت ؟

ـ سأستقل معه سيارته · هذا هو كل ما في الامر ·

وسنفترق في باريس ، حيث أقيم مع عم لي ، وهذا العم هو الوصي على ما آل الي من مال · أما كلير فايت ، فسيواصل طريقه الى حيث يريد · أرجوك أن تفهمني جيدا ·

ـ وماذا تريدين مني أن أفهم ؟ حسبي من كل هذا رحيلك · وماذا يعنيني من الامر بعد ذلك !

ـ هل تريد مني أن أقيم معك ؟

ـ أريد منك أن تقيمي هنا ·· أن الوضع يختلف ·

وردد في ذهنه : « لقد كذبت فيما قلت · بديهي أنني لا أريد منها سوى أن تقيم معي · أنها كل حياتي ، وكل ما تبقى لي منها · أن كوكب الارض قد تضاءل واصبح في نظري هذه القرية النائية بين مقام الجبال العالية ·· تلك هي دنياي وهي كل ما أبغيه من دنياي هذه »

وأردف قائلا ، « لست أريد منك أن تلقي بنفسك الى التهلكة ، وتبددي حياتك كما يبدد السفيه أمواله » .

ـ أن هي الا ألفاظ ترددها · بوريس ! ما الذي يؤثره السجين ·· ان يعيش حرا لعام يفارق الحياة بعده أو قضاء عدة أعوام في السجن ، في حياة راكدة كالماء الاسن ـ ترى ماذا يفضل ؟

ـ ولكنك لست في سجن . انك تصورين لنفسك الحياة خارج هذه القرية ، بصورة مجسمة تخدعين نفسك بها .

ـ انني ادرك ما تعنيه بقولك هذا · وأصارحك بأني لا أعرف شيئا عن هذه الحياة · انني لم أعرف من الحياة سوى ما بسرته لي فترة الحرب ـ لم أعرف سوى اليؤس والخيانة ، وما لا يرضى . غير انني واثقة من ان مارايت ليس هو كل ما في الحياة · أن ثمة جانبا آخر لهذه الحياة الطيبة الحرة · بوريس دعنا من هذا الحديث ·· انني لم اعد أدري من امر نفسي شيئا . أرجوك الا تثير مني المواجع والالام .

فليرحل كلير فايت بمفرده · وبعد بضعة أيام ستدركين مدى ما كنت مقبلة على ارتكابه من خطأ ·

ـ بوريس ! لا شأن لكلير فايت برحيلي . ليست المسألة مسألة رحيل رجل آخر .

ولم يعقب بشيء .لقد أدرك انه تنكب طريق الصواب في أسلوب حديثه معها · أن شدة تعلق الرجل بالمرأة يفقده اياها . أن المرأة لا تحب من يعارضها ولا يداهنها حتى ولو ارتكبت خطأ ·

وقال لها أخيرا : ـ اذا لم يكن الامر كذلك فلماذا لم تسألني أن أذهب معك ؟

ـ أنت ؟

وردد في خاطره لقد عدت لاخطيء ثانية ! لماذا أفرض نفسي عليها ؟ أنها تريد أن تهرب من المرض ـ فماذا يضطرها الى أن تصطحب مريضا معها ؟ أنني آخر من ترغب في السفر معه .

وسمعها تستطرد قائلة : ـ أنني لا أريد أن أحمل معي ما يذكرني بهذا المكان · انني أحبك ولكنني لا أريد ان ··

ـ تريدين أن تنسى كل شيء ؟

ـ لست أدري · أتوسل اليك الا تضاعف من عذابي ·

ولا بالصمت . فقد كان يدرك أنه من الخير له الا يعقب بشيء . غير أنه كان يرى أنه من الاهمية بمكان أن يوضح لها انه لم يتبق الكثير من حياة كل منهما ؛ وأن هذه الآيام التي تبكي منها ، ستبكي عليها فيما بعد . ولكنه كان يدرك في الوقت نفسه ، أن كل ما يقوله سيؤول تاويلا عاطفيا ابعد ما يكون عن أن ينفذ الى قلبها ناهيك بعقلها .

لقد فات الاوان . واسدل هذا الحاجز الزجاجي بينهما ، في لحظة لم تكن في الحسبان بحيث أصبح كل منهما يرى الاخر ولا يفهمه . وأن تبادلا حديثا ، لم ينفذ من آذانها الى العقل . وكان كلا منهما ينطق بلغة اجنبية عن الاخر . لم يعد ثمة مجال لاصلاح ما فسد . لقد ازدادت الهوة بينهما عمقا واتساعا ، واصبح من المتعذر اجتيازها .

ـ وداعا يا ليليان .

ـ أرجو أن تغفر لي .

ـ لا يوجد في الحب ما يغتفر .

● ● ●

لم يكن لديها متسع من الوقت للتفكير . واقبلت احدى المرضات تحمل اليها نبا قدوم مدير المصحة لزيارتها .

وأقبل المدير تفوح منه رائحة مواد التطهير قائلا في لهجة جافة :

« لقد رأيتك الليلة الماضية بالفندق » .

وأومأت ليليان برأسها ايجابا .

ـ تعرفين أنه من المفروض الا تغادري غرفتك ليلا .

ـ أجل ، أعرف ذلك .

ـ يبدو لي أنك لا تبالين بأوامر الاطباء . وأجدني مرغما على أن أطلب منك مغادرة المصحة ، لعلك أن تجدي مكانا يتفق مع رغباتك . ولقد تحدثت في ذلك مع رئيسة الممرضات التي علمت منها أنها سبق أن أنذرتك وحذرتك من سوء عاقبة تصرفاتك . أن في مسلكك المشهر مايسيء الى سمعة المصحة . ونحن لا يمكن ان نتسامح مع من ..

فقاطعته ليليان قائلة ، « انني ادرك ما تعني . ولقد عقدت العزم على مغادرة المصحة بعد ظهر اليوم » .

وتأملها مدير المصحة دهشا . وأخيرا قال لها :

ـ لا حاجة بك للعجلة . لديك متسع من الوقت ، الى ان توفقي الى مكان مناسب . أم لعلك وجدت هذا المكان فعلا .

ـ كلا

ـ اذن ، فقيم هذا العناد القاتل ، وهذا الاصرار على عدم مراعاة صحتك ؟

ـ ان صحتي لم تتحسن على الرغم من اتباعي كل الارشادات .

ـ ولكن هذا لا يبرر توقفك عن مواصلة العلاج . على العكس ، أن في ذلك ما يحدو بك الى الالتزام بتلك الاوامر والارشادات . هذا هو العبث المدمر والاستهتار القاتل . فلا أقدمت عما انت سادرة فيه من غي .

ـ انه من الخير لي أن أذهب .

ولم يكن حديث مدير المصحة معها ليزيدها رغبة . لقد وضع النقط الناقصة فوق الكلمات فزادها جلاء وأصبحت تشعر بما يشعر به الجندي الذي يتلقى الامر بالتقدم بعد طول الانتظار ، ولا يبقى أمامه سوى أن يصدع بما أمر به .

وحاول مدير المصحة ، بشتى الوسائل ، أن يثنيها عن عزمها · فما كان منها الا أن أجابته قائلة :

ـ انني لم أعد المريضة التي استقر قرارها على مواصلة العلاج · لم أعد أرى في نفسي سوى المرأة التي يحق لها أن تفعل ما تشاء ، وقد طرحت جانبا فكرة مرضها ·

ورأت الدماء تتصاعد الى وجه مدير المصحة ، فتركها وانصرف يائسا ·

●●●

حينما فرغت من اعداد حقائبها ، حدثت نفسها قائلة :

ـ ما أن يحل مساء اليوم حتى أكون بعيدة عن هذه الجبال ·

ولاول مرة منذ عدة أعوام ، شعرت بقرب تحقيق الأمل · هذا الامل الذي كان كالسراب الخادع ، يبتعد عنها كلما اقتربت منه · انها واثقة هذه المرة من أنها تضع قدمها على أول الطريق · أنها تقف في النقطة الفاصلة بين ماض من الوحدة ولت أيامه ومضت ، وبين مستقبل مجهول لا تعرف مداه ·

وكانت تخشى أن يعود فولكوف ثانية ، وكانت تتوق في الوقت نفسه الى رؤيته ثانية · وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، وهي تحكم اغلاق حقائبها · وتريثت الى أن هدأت نفسا · ثم قامت بوداع أصدقائها من المرضى · الذين كانوا يحملقون في وجهها في دهشة وذهول · ثم عادت الى غرفتها تنتظر · وبعد قليل سمعت نباح كلب بالباب · ونهضت تفتح باب غرفتها لتجد أمامها كلب فولكوف الكبير · وكان الكلب يحبها وكثيرا ما يصعد

لزيارتها · واعتقدت أن بوريس هو الذي بعث به اليها ، وأنه سيلحق به قوا · ولكنه لم يحضر · وبعد قليل ، سمعت صوت محرك سيارة كلير فايت ، فربتت على رأسه مودعة ، واسرعت تهبط الدرج متسللة . وكانت ترجو ان تجتاز البهو دون أن يراها أحد ولكنها وجدت رئيسة الممرضات في انتظارها .

ـ لقد سألني الرئيس أن أبلغك بأنه في وسعك أن تبقى · بل وأن اقامتك بالمصحة ضرورية لك ·

ـ شكرا ·

وواصلت ليليان سيرها · فقالت لها رئيسة الممرضات :

ـ آنسة دنكرك · انك لا تدركين حقيقة وضعك · يجب الا تغادري منطقة الجبال الان · انك أن فعلت هذا ، فلن تقدر لك الحياة الى نهاية العام ·

ـ وهذا هو السبب في رحيلي ·

وعند الباب الامامي للمصحة ، وجدت هولمان في انتظارها · فقالت له :

ـ الى اللقاء ، يا هولمان !

ـ الى اللقاء ·· سألحق بك قريبا ·

وقال لها كلير فايت ، عندما حيته منشرحة الصدر ،

ـ ساحرص على قيادة السيارة ببطء ·· أحسنت صنعا بتدثرك بهذا المعطف ·

ـ أجل وملابسي الداخلية من الصوف أيضا ·· علم بنا ·

ـ الم تنسي شيئا ؟

ـ كلا ·

لقد كانت تتعجل الرحيل . وكانت تريد أن تطمئن

على أنها أصبحت بعيدة عن الصحة، وعن الجبال، وعن المنطقة بأسرها . وتحركت بهما السيارة ووقف هولمان يلوح لهما مودعا . ولم تر أثرا لبوريس ، سوى هذا الكلب الذي أخذ يعدو خلف السيارة بأقصى ما أوتي من سرعة . وشاهدت صفا من نزلاء المستشفى وقد نهضوا عن مقاعدهم بالشرفات يتطلعون الى السيارة ، ويتابعونها بأنظارهم .

وعلق كلير فايت على هذا بقوله : « كالمصطفين حول حلبة مصارعة الثيران » .

— ترى من عساتا أن نكون ؟ الثور أم المصارع ؟

— الثور دائما ، وأن كنا نعتقد أننا المصارعون .

الفصل السابع

وانسابت السيارة على مهل ، فوق الطريق الملتوى بين الثلوج ، وكان بصرهما لا يقع الا على جدارين من الجليد يعلوهما شريط أزرق من السماء .

وأخيرا لاحت لهما عن بعد ، مبانى قرية صغيرة . وتوقف كلير فايت بسيارته أمام محطة البنزين القائمة عند مدخلها . وسأل القائم على الخدمة بالمحطة عما عليه الطريق بعد القرية . وما أن سمع اجابته حتى التفت كلير فايت الى الصبى ، وبعد أن تأمله مليا قال له : « أننى أعرفك ! تدعى هوبرت أو هيلمت أو — » .

— هيوبرت .

— أجل . هيوبرت جورنج .

وابتسم الصبى راضيا . وقام بتأدية ما هو مطلوب منه فى نشاط الشباب ، بينما راح يتجاذب أطراف الحديث فى شتى الامور مع كلير فايت .

ثم انطلق كلير فايت بسيارته ، الى أن خلف وراءه الجليد ، بعد مسيرة ساعة . وكان الماء يتساقط قطرات من أسطح المنازل ، ومن جذوع الاشجار ، وينحدر جداول

من جنبات المرتفعات . وكانت النوافذ تعكس بزجاجها ، أشعة الشمس الغاربة . وكانت طرقات القرى تزدحم بالاطفال ، الذين يلهون ويعبثون .

وسألها كلير فايت : — هل تحبين ان نتوقف فى مكان ما ؟

— ليس بعد .

— هل تخشين أن يعود الجليد ليطوقنا

— انني اكره أن أراه ثانية .

— لن يكون هذا قبل حلول الشتاء القادم .

الشتاء القادم — لن يكون هذا أبدا !

وسألها كلير فايت : — الا يحسن بنا أن نتوقف عند أحد المطاعم لتناول قدح من القهوة بالكونياك ؟ أن الطريق امامنا طويل .

— فليكن .. متى سنصل الى بحيرة ماجيور ؟

— بعد بضع ساعات .

وأوقف كلير فايت محرك السيارة أمام أحد المطاعم . واستفسر من ليليان عما اذا كانت ترغب فى تناول شيء من الطعام ، فوافقت مرحبة .

وجلست ليليان الى مائدة بجوار النافذة . وراحت تتطلع منها الى الاشجار القائمة كالاشباح فى الظلام ، وكان كل شيء يبدو هادئا وادعا . وكان هذا ، أول مساء لها مجردا من الخوف والقلق ، والثورة النفسية . هذه هى الحياة التى هربت اليها . الحياة التى حرمت من تذوقها أعواما دون جدوى وكان مقدرا عليها أن تحرم منها الى نهاية العمر .

واقبل كلير فايت يقول لها ، وهو يتخذ لنفسه مقعدا فى مواجهتها :

— ارجو ان يحوز اختياري لالوان الطعام اعجابك ؟

— انني احب كل شيء هنا !

— وهذا ما اخشاه .

— وما هو سبب خوفك ؟

— لا يوجد ما هو اشد خطورة من امرأة تحب كل شيء . وكيف يتأتى للرجل ان يحملها على ان تحبه دون سواه . كيف يمكنه ان يستأثر بحبها ؟

فرنت اليه ضاحكة . واقبلت الساقية تحمل صحاف الطعام وكؤوس النبيذ .

● ● ●

جالت بخاطر كلير فايت على امتداد الطريق ، شتى الخواطر . ترى هل سيفقدها بمجرد وصولهما الى باريس ؟ كلا ، يجب ان احاول الاحتفاظ بها . سأكون متناهى السذاجة ان لم احاول ذلك .

وسألها ، وهما يواصلان طريقهما الطويل :

هل لديك فكرة عما ستفعلينه فى باريس ؟

— لى عم فى باريس . وهو الذى يتولى مصالحى المالية — واعتزم مطالبته بتسليمى كل اموالى ، وما أحسبه الا معتقدا انني لا زلت قاصرا فى الرابعة عشرة من عمرى .

— وكم من العمر بلغت ؟

— بلغت الرابعة والعشرين وثمانين يوما .

قضحك كلير فايت قائلا : كنت فى السادسة والثلاثين وثمانين يوما — حين عدت من الحرب ، ولقد بلغت الان الاربعين .

واخيرا اصبحا على مشارف البحيرة وسألته ليليان :

ـ اين ستقيم ؟

ـ بجوار البحيرة ، في فندق تامارو .

ـ كيف تأتى لك ان تتعرف على كل مكان ؟

ـ لقد اقمت هنا عاما بعد الحرب ، وستعرفين السبب في صباح الغد .

وتوقف بسيارته امام الفندق الصغير ، قائلا :

يقتني صاحب هذا الفندق مكتبة كبيرة . انه من العلماء وثمة مدير لفندق آخر اعلى الجبل . يقتني لوحات فنية رائعة لسيزان ، واوثر يللو ، ولوتريت . ومن هذا القبيل ستشاهدين الكثير . ما قولك في تناول طعامنا في مكان آخر ؟

ـ اين يا ترى ؟

ـ في بريساجو على الحدود الايطالية . في مطعم يسمى جيارديتو .

ـ كما تشاء . انك ادرى بمعالم هذه البلاد .

ولم يكن المطعم مزدحما . وكانت نوافذه مفتوحة ، والنسيم رقيقا . وفوق المائدة وجدا اناء به باقة من زهور الكاميليا البيضاء

وسألته ليليان : ، قلت انك اقمت هنا عاما ؟ على شاطىء هذه البحيرة ؟

ـ اجل ، قرابة العام .. بعد الحرب . وكنت ازمع الاقامة لايام قليلة ، ولكنها بلغت العام . لقد كنت بحاجة الى ذلك . بحاجة الى هذه الفترة من الاستجمام والراحة . في صحتك :

ـ ان الطعام هنا متناهي الجودة .

ـ اجل . وهذا بفضل عناية مدير المطعم المعروف بخبرته .

ـ كلير فايت ! انني جد سعيدة ، وان كنت لا اعرف ماذا تعني كلمة السعادة على وجه التحديد .

ـ وانا الاخر

ـ ألم يسبق لك ان شعرت بالسعادة ؟

ـ من حين لاخر . وكان شعوري في كل مرة يختلف عن الاخرى . وكنت وحيدا في اغلب هذه الحالات

فضحكت ليليان ونهضا عائدين الى اسكوتا . وترك كليرفايت السيارة امام الفندق . واتجها عبر الميدان الى حانة هبطا اليها درجا قليلا .

وقالت ليليان ، ، لا اشعر بميل الى مزيد من الشراب . انني سكرى بنشوة ما يحيط بي من جمال . ماذا عساها ان تكون تلك الجزر في وسط البحيرة ؟ » .

ـ يقولون انها كانت معبدا اقيم لفينوس في عصر الرومان . وقد اقام عليها بعضهم مطعما في ايامنا هذه . ويقولون ان الالهة ما زالت تؤم المكان في الليالي القمرية . وان مدير المطعم يجد في الصباح كثيرا من زجاجات الخمر وقد افرغت مما بها دون ان تنزع سداداتها . ان هؤلاء الالهة لم يكونوا يعرفون شيئا عن الشمبانيا . انها لم تعرف الا في العصور الوسطى .

وقفلا راجعين الى الفندق . ووقفت بنافذة غرفتها ، وقد امتدت امامها البحيرة ، والليل ، واشجار الربيع ..

واقبل كلير فايت يطوقها بذراعه . فاستدارت تواجهه . فطبع على شفتيها قبلة طويلة . فقالت له :

ـ لست خائفا ؟

ـ من ماذا ؟

ـ من العدوى

ـ انني لا اخشى سوى انفجار اطار امامي ، وانا اقود سيارتي بسرعة قدرها مائة وخمسة وعشرون ميلا في الساعة ·

وزفرت ليليان زفرة حارة · اننا متشابهان · كلانا لا مستقبل له · ان مستقبله لا يمتد لاكثر من السباق التالي ، ومستقبلي رهين بالنزيف التالي · وابتسمت وسمعته يستطرد قائلا :

ـ ثمة قصة حول هذا الموضوع · فقد كان هناك رجل في طريقه الى منصة الاعدام في باريس · وكان الطقس شديد البرودة ، والطريق الى الجيلوتين طويل · ووقف الحراس في الطريق ، يشربون نبيذا من زجاجة معهم وبعد ان شربوا منها ، قدموها للسجين ليأخذ نصيبه منها . فتناولها منهم ؛ وبعد أن تسلمها لحظة ؛ قال لهم ، « من المفروض انه لا يوجد بيننا من هو مصاب بمرض معد » · ثم رفعها الى فمه وافرغ ما فيها · وبعد نصف ساعة نفذ فيه حكم الاعدام · ولقد روت لي هذه القصة جدتي ، حينما كنت في العاشرة من عمري · وكانت تستهلك زجاجة من الخمر يوميا · وكانوا يتنبأون لها بالموت في سن مبكرة ولكنها لا تزال على قيد الحياة وقضى المتنبئون نحبهم منذ اعوام مضت · لقد اتيتك بزجاجة من الشمبانيا المعتقة ·

ووضع الزجاجة فوق قاعدة النافذة · ثم اتجه الى باب الغرفة يزمع الانصراف ، فناداته ليليان :

ـ كلير فايت · انني لم ارحل عن المصحة لابقى وحيدة ...

الفصل الثامن

كانت ضواحي باريس تمتد امامهما كئيبة ، مظلمة ، ساكنة . غير انه كلما امتد بهما السير الى داخل المدينة الكبرى تغير الحال ، وبدأت معالم البهجة تنفذ الى صدريهما · وبدت باريس جميلة رائعة ، براقة ، تنيه بنهرها وبتلك المباني على جانبيه

والتفت كلير فايت قائلا :

ـ من هذه البقعة ، اقتادوا ماري انطوانيت لاعدامها · هناك مطعم ممتاز في الجهة المقابلة · في هذه المدينة ويمكنك ان تقرني الجوع بالتاريخ في اكثر من مكان . اين تودين ان تقيمي ؟

ـ في هذا الفندق الصغير ·

ـ هل لك به سابق معرفة ؟

ـ وانى لي ذلك ؟ · حينما كنت هنا ، كنت اقيم في بدروم

ـ ولماذا لا تقيمين مع عمك ؟

ـ ان عمي من البخلاء · وارجح انه يتخذ له مسكنا من غرفة واحدة · هلم بنا نعبر الجسر لنستقصر عما اذا

كانت لديهم غرف خالية . واين ستقيم ؟

ـ في فندق ريتز ·

ـ طبعا ·

وعبرت السيارة بهما الجسر الى طريق سانت ـ ميشيل ، ثم الى كورنيش جراند اوجستين ، حيث توقفت امام فندق بيسون · وعاد كلير فايت يسألها :

ـ هل تزمعين حقا ان تقيمي هنا ؟

ـ ان هذا الفندق هو الذي يناسبني ، ببساطته وموقعه ·

ولم يكن بالفندق مصعد ، غير ان الغرفة الخالية كانت بالطابق الثاني · وكانت صغيرة فقيرة الاثاث · وان كان مما يعوض هذا النقص ، أن نافذة الغرفة كانت تطل على النهر ، وعلى كنيسة نوتردام ·

وسألها كلير فايت قبل انصرافه :

ـ هل توافقين على تناول العشاء معي الليلة ؟ وليكن ذلك في الساعة التاسعة ·

ـ الى اللقاء ، في الساعة التاسعة ·

ووقفت تتابع سيارته بأنظارها · ولم يحدث انهما تبادلا كلمة واحدة عن تلك الليلة بأسكوتنا ، اثناء قطعهما هذه المسافة الطويلة الى باريس · وارتفت الدرج الى غرفتها ، حيث وقفت بالنافذة تفكر وتستعرض ، قد يعود ، وقد لايعود .. أنه أمر غير مؤكد ، كما أن عودته وعدم عودته ليست بالبالغة الاهمية ان كل ما يعنيها الان ، انها في باريس تتنسم هواءها ، وتملى عينيها امتها ، ومن كل مظاهر الحياة فيها ·

وبدأت تفض حاجياتها · انها لم تأت بالكثير معها · كما انها لا تحمل معها الكثير من النقود .. وحاولت

الاتصال بعمها دون جدوى · واعادت الكرة ، لتسمع صوتا · غير مألوف لديها · وانتهت اخيرا الى الرأي بأن عمها قد تنازل عن اشتراكه في التليفون · ثم تبادر الى ذهنها ما روعها .. ان عمها لم يكتب لها منذ فترة طويلة ، ترى هل فارق الرجل الحياة ؟ لقد كانت تتلقى نقودها من البنك رأسا · وجلست تفكر مليا في الموقف من كل وجه · ان ما معها من نقود لا يكاد ان يقوم بنفقاتها اسبوعا · ترى ماذا هي فاعلة ؟

وسمعت طرقا على باب غرفتها .. وكان الطارق حارس باب الفندق يحمل اليها لفافتين · وكان بأصغرهما حجما باقة من الزهر · وبالثانية غطاء من الصوف مرفق به هذه الرسالة من كلير فايت :

رأيت انك قد تكونين بحاجة الى هذه لان وسائل التدفئة في باريس لم تزل دون الكفاية ·

ونهضت ترتدي ثيابها .. ان رسالة عمها الاخيرة ما زالت معها ، وبها عنوانه الذي دونه بها منذ ستة اشهر · وليس عليها الان ، الا ان تبحث عن هذا العنوان وتواصل تحرياتها عن عمها هناك ·

ولم تلق كبير عناء في البحث عن عمها. اذ كان مازال مقيما في مسكنه القديم · كل ما في الامر انه تنازل عن تليفونه ·

وبعد ان ابدت له رغبتها ، قال لها :

ـ اموالك ؟ كما تشائين ولكن ، ماذا انت فاعلة بها ؟ وفيم هذه العجلة ؟

ـ اريد ان ابتاع ما اشاء وما يحلو لي من ثياب ·

فحملق الرجل في وجهها وقد استبدت به الدهشة قائلا :

ـ انك صورة طبق الاصل من والدك ·
ـ ان والدي قد مات
ـ لم يعد لديك الكثير مما خلفه لك والدك · ماذا تعتزمين ؟ ولماذا تغادرين سويسرا ؟
ـ انني لم اغادر سويسرا ، لقد غادرت المصحة ، التي لم اعرف سواها مكانا من سويسرا !
ـ ولكنك قد تبددين ما تبقى لك في اسابيع قليلة · وبعدها ··
ـ اطمئن .. لن اثقل عليه او اصبح حمـــلا على كاهلك ·

ـ ولماذا لا تتزوجين ؟ هذا ما ينبغي لك · وفي وسعي ان ادبر امر لقائك بالبعض من خيرة الناس ·
وضحكت ليليان وتأملت هذا الرجل البالغ الثمانين من سني حياته ، وهو واقف امامها وكأنه قادر على اجتياز ثمانين اخرى ، فقالت له :
ـ فليكن ·· والان خبرني ·· ماذا تفعل في وحدتك ؟
ـ ماذا افعل ؟ كل ما يفعله الناس ·· فيم سؤالك ؟
ـ ألم يسبق لك ان شعرت بتلك الرغبة الجامحة في الانطلاق الى أرجاء العالم ، غير مدخر وسعا في تذوق الحياة بجميع صورها ؟
ـ الم اقل لك ؟ انك صورة من والدك ! انه لم يكن ليشعر بأنه رجل مسئول ·· كان مستهترا لا يحسب حساب المستقبل ·· يدور بخلدي الان ، انه من الخير لك ان اطالب بالحجر عليك ·
ـ انك تعتقد أنني سأبعثر اموالي في سفه واسراف ولم يدر بخلدك أنك تبدد سني حياتك هباء .. دعنا من الاسترسال في هذه المناقشة العقيمة ·· انني اريد ان

اتسلم اموالي غدا · لانني اريد ابتياع تلك الثياب فورا ولا تنس ان المال مالي ·
ـ ان والدتك
ـ أريده غدا ·
وطبعت قبلة على جبينه · ولكنه استطرد قائلا :
ـ ليليان ! استمعي الي ! اياك والاندفاع · ان ابتياع الثياب من المتاجر ذات الاسماء الرنانة يكلف غاليا !
ـ وربما كان هذا صحيحا ولكني لا ابالي
ـ تماما ، تماما ، مثل والدك !
ـ عماه ! الا تخشى الموت ؟
ـ ان خواطرك لشاذة غير مألوفة ·
ـ هذا صحيح · فما كان لي ان اوجه اليك مثل هذا السؤال · ولكني كثيرا ما اسأل نفسي هذا السؤال بحيث اصبح مألوفا لدي ، ونسيت انه يفزع الغير ·
ـ انني ما زلت في صحة جيدة · فاذا ما كنت تمتين النفس بتركتي فقد يطول بك الانتظار ·
ـ كلا · ان شيئا من هذا القبيل لم يجل بخاطري ·
ـ اين تقيمين ؟
ـ في فندق بيسون
ـ حمدا لله ! انك لا تقيمين بفندق ريتز ·

● ● ●

في الموعد المحدد جاء كلير · واصطحبها الى مطعم جراندفيفور · وسألها ـ
ـ ماذا كان للدنيا في نفسك من انطباع ؟
ـ اشعر بأنني اعيش بين قوم يعتقدون انهم يعيشون ابدا ولن يعوقوا انهم حريصون على ما يملكون منها ،

لقد تحدث عمي جلستون عن وضعي تحت الحجر وعن تدبير امر زواجي .

فضحك كثيرا فايت قائلا : « بودد لو انزلك في سجن آخر قبل ان تتذوقي طعم الحرية .

ـ وما هي الحرية ؟

ـ لست ادري ، كل ما اعرفه عنها انها شيء يصبو اليه الجميع ولا يمكن تعميم وصفه .

ـ ومتى ستعود ؟

ـ بعد بضعة ايام .

ـ وهل لك صاحبة في روما ؟

ـ أجل .

ـ هذا ما كنت أعتقد .

ـ ولماذا ؟

ـ لان هذا هو ما يتفق مع طبيعة الاشياء وانا بدوري كان لي صاحب حينما أتيت لزيارتنا هناك .

ـ والان ؟

ـ والان ، انني تشوق بحياتي الجديدة ، بحيث أصبحت عاجزة عن التفكير فيها .

● ● ●

بعد ظهر اليوم التالي ، توجهت الى متجر بالنشياجا وجلست تستعرض عارضات الازياء وتمعن النظر فيمن جلسن من العميلات .

واستقر رأيها على ما راق لها من ثياب ، وسألتها البائعة ان تنهض لتجربة مقاسها ، فاستغفرت ليليان منها عن الفترة اللازمة للاستلام ، فاجابتها :

ـ بعد ثلاثة او اربعة اسابيع على الاقل .

بينما يتركون ايامها تنساب من بين اصابعهم .

ـ ومع ذلك ، فانهم جاهروا في زمن الحرب بانهم لن يعودوا لارتكاب هذا الخطأ ، اذا ما قدرت لهم الحياة ، ان الانسان لينسى كل شيء ، بعد زوال الخطر .

ـ وهل كان هذا هو شانك ؟

ـ كلا . حاولت ان انسى دون جدوى .

ـ الهذا السبب احببتك ؟

ـ انك لا تحبيني .. اذا ما كنت تحبيني حقا ، لما نطقت بهذه الكلمة بكل سهولة ـ ولما صارحتني بذلك .

ـ ترى هل احببتك لانك لست ممن يفكرون في المستقبل ؟

ـ اذا كان الامر كذلك ، فكان لك ان تحيي كل نزل معك في المصحة . لنرى الان ـ ماذا تاكلين ؟

ـ لماذا احببتك انت بالذات

ـ لانني معك هنا . ولانك تحبين الحياة انني طراز مجهول الاسم من الحياة بالنسبة لك ، ولشدة ما في هذا الشعور من خطورة .

ـ بالنسبة لي ؟

ـ بالنسبة للطراز المجهول ، فما ايسر ان يحل محله آخر .. انني راحل غدا .

ـ الى اين ؟

ـ بعيدا .. يجب ان اذهب الى روما .

ـ اما انا فيجب ان اذهب الى متجر بالنشياجا لابتياع ما ابغي من ثياب . اظن انه ابعد مدى من روما .

ـ انني اذهب الى روما فعلا . فثمة عقد يجب ان ارى ما تم فيه .

ـ حسنا . سيتيح هذا الفرصة لي لافرغ لمشترواتي .

ـ أننى أريدها فورا ٠

ـ لا يمكن ٠ غير أننا سنبذل أقصى ما في وسعنا ٠ أننا مثقلون بالعمل ، وسنحاول اعدادها في أقرب وقت ٠

ووقفت أمام المرآة ،تستبدل ثوبا بآخر وهي تستمع لاطراء العاملة لذوقها وحسن اختيارها ٠

وتكاثرت حولها العاملات ، يرددن الاشادة بجمالها ، وما يضفيه على ثيابها من روعه ٠

واتفقت أخيرا مع من بيدهن الامر ، على الحضور للاستلام في مدى اسبوعين ،مراعاة لظروفها الخاصة ٠ وغادرت ليليان المتجر راضية ، قريرة العين ٠٠ أنها تتأهب لاستقبال الحياة !

الفصل التاسع

عاشت هنين الاسبوعين في نشوة رائعة وبعد أن تسلمت ما أعد من ثياب لها ، بعثت بالفواتير الى عمها جاستون ، الذي لم يكن قد حول اليها حسابها بعد ، بحجة أن الامر يتطلب الكثير من الاجراءات ٠

وزارها عمها في اليوم التالي وقد ثارت ثائرته ، قائلا أنها أبعد ما تكون عن الشعور بالمسئولية ، مطالبا اياها بالانتقال الى مسكنه ٠

ـ حتى أكون تحت سيطرتك ؟

ـ لكي تكوني أكثر تعقلا ٠ أنها لجريمة أن تدفعي مثل هذه المبالغ الطائلة ثمنا لبعض الثياب ٠٠ أنها يجب أن تكون مصنوعة من الذهب لكي تساوي هذا الثمن ٠

ـ لو رأيتها لغيرت رأيك ٠

ـ مهما يكن من أمرها ، فان هذا لا يبرر بحال ما أن يبيع المرء ما لديه من أسهم وسندات ثقل عليه دخلا محترما ، في سبيل ابتياع هذه المستهلكات ، يجب أن اتخذ الخطوات اللازمة لوضعك تحت الحجر ٠

ـ فلتحاول ذلك ٠ أن أحدا من القضاة لن يستمع اليك ٠ وقد تنقلب الآية عليك في نهاية الامر ٠٠ اذا لم

تعجل بتسليمي كل ما لي عندك ، سأبتاع ضعف ما أنا بحاجة اليه وأبعث اليك بالفواتير .

ـ اتبددين ثروتك في هذه الخرق البالية .. ؟ انت اذن ..

ـ كلا ، لست بالمجنونة . وان المجنون هو من يعيش على الحرمان ، وهو يعرف أن أباه في الحياة معدودة ويخلف ماله لورثة يبددون تركته . دعنا من هذا الحديث ، واقبل دعوتي لتناول طعام العشاء . ان الطعام هنا جيد ، وسأرتدي من أجلك ثوبا جديدا .

ـ لا تغيري مجرى الحديث . ان بعثرة النقود ..

ـ انك ستكون ضيفي . وأريدك أن تحدثني بالكثير عما يضطرب الناس فيه من حياة . هيا ، فلتجلس في انتظاري بالطابق الاول حيث الحق بك .

● ● ●

بعد ساعة هبطت اليه الدرج . وكان العم شاحب الوجه وقد امضه طول الانتظار ، وسرها أنه لم يتعرف عليها . لاول وهلة . وأقبلت عليه قائلة :

ـ انتما عرفتني فقد رأيت تصلح من شأنك وتعتدل في جلستك .

هراء . ان قوة ابصاري ضعفت ، ثم انك .. ولكن لمن ترتدين هذا الثوب ؟

ـ لنفسي . . لمتعة نفسي .

ـ اليس لك ..

ـ كلا . أعرف ما يجول في خاطرك .

ـ هل تشعرين بالوحدة ؟

ـ أجل .

وتقدمت الى مطعم الفندق . ولاحظت أنه يلتزم في انتقاء طعامه بقائمة الاسعار . أن هؤلاء البخلاء يفقدون القدرة على تذوق الحياة والاستمتاع بها في غمار حرصهم الشديد . أن هؤلاء البخلاء يفقدون القدرة على تذوق الحياة والاستمتاع بها في غمار حرصهم الشديد . وحينما راح يحدثها عن طفولتها ، قالت له : « دعنا من هذا الحديث . أريد أن أعرف منك شيئا واحدا : لماذا سميت بليليان « انني اكره هذا الاسم » .

ـ كان هذا بناء على رغبة والدك .

ـ ولماذا ؟

ـ حينما كان في مقتبل العمر ، سافر هو ووالدتك الى نيويورك لفترة ما . وقد علمت فيما بعد ، بانه كان على علاقة غرامية بفتاة تدعى ليليان : معذرة ! انك من ..

ـ انني جد مسرورة لعلمي بذلك . كنت احس أن الاسم كان من اختيار والدتي : التي كانت تهوى القراءة فحسبتها انتقته من أحد الكتب .

ـ ليلى ؟ هل تعتزمين الاقامة هنا ؟ الا ترين انه لا يليق بك ؟

ـ ان النبيذ قد أتى ثماره ! وجعل منك أكثر انسانية ! .

ـ ساقيم مأدبة تكريما لك .

ـ حسنا .

ـ لقد أصبحت فتاة رائعة الحسن .

● ● ●

وفي روما ، كان كلير قابت يقضي نهاره بين مكاتب العمل ، وبين المقاهي . وكان يمضي أمسياته مع ليديا

موريللي وكان يفكر في ليليان ، في أيامه الاولى من حين لآخر . ثم نسي أمرها ، فيما بعد ذلك من أيام . لقد كادت ان تستحوذ على لبه ، الامر الذي لم تكن له به سابقة عهد مع النساء . وكان وراءها بهذا تدبير صغيرة تجنح الى المغالاة في كل ما تفعل . ولعلها أن تجنح الى الاستقرار اخيرا . انها لجتزل أسيرة ما يتملكها من خاطر انها يجب أن تلحق بقطار الحياة قبل أن يفوت الاوان . وسرعان ما ستجد أن خواطرها لم تكن سوى أوهام ، وتصبح كغيرها من النساء — من طراز ليديا موريللي مثلا . صحيح انها لم تؤت بداعة ليديا او حنكة تجاربها . انها من هذا الطراز من النساء اللاتي يناسبن الرجل العاطفي الشاعري ، الذي يمكنه أن يكرس لها الكثير من وقته . وهو ليس بالرجل الذي يصلح لها . كان يجب أن تبقى الى جوار فولكوف . انه الرجل الذي يصلح لها ، وان كان لم يستطع الاحتفاظ بها . أن كليرفايت ينتهج أسلوبا مختلفا من الحياة . وهو لا يريد أن يرتبط بشيء ارتباطا وثيقا . ان ليديا موريللي هي المرأة التي تناسبه . ولم تكن ليليان سوى تجربة عارضة لها سحرها المؤقت في فترة اجازته .

وبعد ان انتهى به تفكيره الى هذا الرأي ، شعر بالراحة وسرى عنه . وليس أمامه الان سوى أن يتصل تليفونيا بليليان في باريس .. موضحا لها حقيقة الوضع بينهما . ولعل الامر لا يتطلب منه ايضاحا . فقد تكون ليليان قد انتهت من استعراضها للامر الى ما انتهى اليه هو . ولكن ، فيم هذه الرغبة التي يشعر بها في أن يلقاها ثانية ؟ ولم يطل به تفكيره في ذلك . فبعد أن تم توقيع عقده بيومين ، أبدت ليديا موريللي رغبتها في السفر الى

باريس . ولما كانت تكره السفر بالسيارة أو جوا ، فقد استقلت القطار بينما استقل هو سيارته .

● ● ●

كانت ليليان تخشى الليل بظلامه . فقد كان يعني لديها ضيق التنفس ، والوحدة القاتلة ، والخوف المجسم من الموت . وكانت تحتفظ بغرفتها مضاءة في الصحة ، لتقصي عنها تلك الاشباح التي تتراءى لها في الظلام . وكانت ليالي باريس ارفق بها ، بما تزخر به من ضوضاء وحياة لا تهدأ حتى الصباح . وكانت تقضي بعض هذه الليالي وهي تتحسس ثيابها الجديدة ، وتمني النفس بما سيكون من أمسيات المستقبل بل كانت تنهض أحيانا فترتدي البعض منها ، وتقف أمام المرآة تتأمل جمالها وتتمتع عينيها بصورتها الجديدة ، التي تتفجر أنوثة وبهاء .

وحينما تم بينهما اللقاء ثانية ، وقف كلير فايت يحملق بعينيه — فقد تغيرت من حال الى حال وكان قد اتصل بها تليفونيا ، بعد عودته الى باريس بيومين — لقد قام بذلك لمجرد ثانية واجب المجاملة وبفكرة قضاء ساعة لقاء معها . وبعد اللقاء أصبحت الساعة أمسية بطولها . ولم يكن ما شده اليها هو ثائره بروعة ثيابها كلا . لقد رأى كثيرات بثياب لا تقل جمالا . وكانت ليديا موريللي من تلك النساء الخبيرات بالثياب الغالية الثمن . أن الامر اكثر من ذلك وأعمق . فقد بدا له انه ترك فتاة ناشئة ، وعاد بعد بضعة أسابيع ليجد أمامه امرأة مكتملة الانوثة طاغية السحر . ورآه يعدل عن قراره السابق ، ويزداد بها تعلقا ..

بعد بضعة أيام من لقائهما قالت له ليليان : « ان عمي جاستون يريد ان يقيم مأدبة من أجلي » .

ـ هكذا ؟

ـ أجل . لانه يريد أن يمهد لي طريق الزواج

ـ وفيم هذه العجلة ؟

ـ انه جد قلق من أجلي .. انه يريد ان يجلي بهذا الزواج نتائج اسرافي وتهوري .

والتزم كلير فابت جانب الصمت . فاستطردت قائلة :

ـ يبدو انك فقدت لسانك في روما ؟ أم ترى هي المرأة التي قدمت منذ لحظة ؟

وكانا يجلسان الى مائدة في مطعم جراند فيفور الذي سبق أن تناولا به طعام العشاء في أول ليلة لهما في باريس . فقال لها أخيرا :

ـ أية امرأة ؟

ـ أويجب ان احدد لك مكان جلوسها ؟

وكان كلير فابت قد لمح ليديا موريالي في قدومها . وما أن وقع نظره عليها ، حتى تساءل فيما بينه وبين نفسه دهشا :

ـ « ترى ماذا أتى بها الى هذا المطعم بالذات » ؟

ولم تكن له معرفة سابقة بالرجل الذي كانت في صحبته . وكان كل ما يعرفه انه يدعى جوشسون وانه من كبار الاثرياء . وتبادر الى ذهنه انه سبق أن اصطحب ليديا الى هذا المطعم أكثر من مرة . ولما كان قد اعتذر لها عن عدم استطاعته تمضية مساء اليوم في رفقتها ، فقد ادركت بثاقب فكرها ، انه ربما يكون على موعد مع امرأة أخرى ، وان من المرجح ان يصطحبها الى مطعمه المفضل .

وقطعت عليه ليليان حبل افكاره بسؤالها :

ـ هل تعرفها ؟

ـ أجل .. ولكنها ليست معرفة خاصة .

وتبين أن ليديا لم ترفع عينيها عن ليليان ، وانها كانت تدرس بامعان كل قطعة من ثيابها . وليديا خبيرة في مثل هذه الاشياء ، وخير من يزنها بميزانها الصحيح . ورأى ان يستغل الموقف الذي لم يكن في الحسبان لمصلحته وعندما سمع ليليان تقول ،

ـ انها تعني بأناقتها .

ـ انها معروفة بذلك .

وكانت ليديا في الاربعين من عمرها ولكنها تبدو في الثلاثين نهارا ، وفي الخامسة والعشرين ليلا .

وتوقع كلير فابت أن تبدي ليليان ملاحظة بشأن سن ليديا . ولكنها اتبرت قائلة ، « انها جميلة .. هل كانت لك بها علاقة ؟ »

ـ كلا .

ـ يالك من أحمق !

ـ ولماذا ؟

ـ لانها رائعة الحسن . أتراها من روما ؟

ـ أجل .. من روما . هل تغارين منها ؟

ـ ياللممكين ! كلا . فليس لدي متسع من الوقت لشعور بالغيرة

فحملق كلير فابت في وجهها دهشا .. ولو ان ليليان كانت امرأة اخرى ، لكان قد رأى في قولها هذا مجرد مراء . ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه أن ليليان صادقة فيما قالت . أنها تعني هذا فعلا ولم تنطق الا حقا . وفجأة وبدون مقدمات وجد انه يقول لها محاولا أن يسيطر على اعصابه .

ـ هل يمكن أن نخوض في حديث آخر ؟

ـ لماذا ؟ **ألانك عدت الى باريس تصطحب امرأة أخرى ؟**

ـ هراء ما تقولين ! ما الذي يحملك على مثل هذا الظن ؟

ـ ليس هو الحق ؟

ـ بلى ، انه الحق .

وشعر كليرفايت أنه أولى له ان يقلع عن انكاره . وبدلا من أن تثور ، سمعها تقول له :

ـ أسمح لي أن أطرى ذوقك .

وأطرق في انتظار السؤال التالي . وكان على استعداد للافضاء بكل شيء . وكان يدرك أنه مسئول عن هذا الموقف ، وأن منطقه لن يسعفه في الخروج منه . ولم يعد أمامه سوى المخاطرة لعله أن يستعيدها أو يفقدها الى الابد . فقال لها :

ـ ليليان ، انني لم أضع نصب عيني أن أفرض نفسي عليك وانغمس في علاقة غرامية بك .

فابتسمت قائلة : ، أن هذا الا قول صبي لم يشب عن الطوق . ولست أرى فيه علاجا للموقف ، .

ـ كلنا في الحب صبية أغرار .

ـ الحب .. ؟ يالله من لفظ أخاذ ! لكم تخفي هذه الكلمة تحتها من أشياء ! هل توافق على مغادرة هذا المطعم ؟

ـ الى أين ؟

ـ أفضل العودة الى غرفتي بالفندق .

ولم يعقب كليرفايت بشيء . ودار بخلده أن كل شيء بينهما قد انتهى . ونهضا في طريقهما الى الباب ، مارين بمائدة نيديا موريللي . وتجاهلت نيديا كليرفايت .

وأومأت ليليان الى سيارة كلير فايت التي كانت بجوار باب الدخول قائلة :

ـ هذه السيارة هي التي كشفت امرك . هيا بنا الى الفندق .

ـ لم يحن الوقت بعد . هلم بنا الى حدائق القصر الملكي .

ـ لقد طفت بهذه الحدائق أكثر من مرة . ألا تخشى اتهامك بالزواج من اثنتين ! .

ـ دعينا من هذا الحديث الان . هيا معي .

ودلفا الى حدائق القصر . وكانت رائحة الزهر نفاذة قوية والنسيم عليلا منعشا . وتوقف كليرفايت عن السير قليلا لا تقولي شيئا ، ولا تطالبيني بمزيد من الايضاح ، انني لا قبل لي بشيء من هذا القبيل .

ـ وما عساني أن أطالبك به من ايضاح ؟

ـ أحقا ما تقولين ؟

ـ أجل . لم يطرأ على باني شيء من ذلك .

ـ انني أحبك .

ـ انني لم أجعل من الامر مشكلة ومشهدا ببننا !

ـ كلا . أحبك لالمسته منك من مسلك ممتاز .

ـ لست أرى فيما كان مني ما هو جدير بكل هذا الاطراء . أتعرف لماذا لانني لا أعرف كيف تكون هذه المشاهد .

وكانت تقف في مواجهته ، وقد عبث النسيم بخصلات شعرها . وراها أمامه وكأنه لم تسبق له بها معرفة من قبل . وألفى نفسه يقول لها :

، أحبك ، ويحتضنها بين ذراعيه ويقبلها ولم تقاومه . بل ظلت متعلقة بذراعيه ، غائبة عن وعيها . فأمسك بها من كتفيها قائلا .

ـ قولي شيئا ! أي شيء ! قولي لي أن أذهب بعيدا عنك ، إذا كان هذا هو ما تريدين .. اصفعيني على وجهي ولكن لا تقفي هكذا كتمثال أصم .

فتخلصت من قبضته قائلة:

ـ ولماذا أسألك أن تذهب عني ؟

ـ هل تريدين مني حقا أن أبقى معك ؟

ـ أن كلمة « تريد » ليس لها محل في ليلتنا هذه . هل تحس بلمسات النسيم ؟ ترى ماذا يريد هذا النسيم ؟

فتأملها قليلا . ثم قال لها وقد تملكه شعور جارف :

ـ أعتقد أنك تعنين كل ما تقولين .

ـ ولم لا ؟ لقد قلت لك أن الأمر أهون مما تفترض .

وأطرق قليلا ، وهو لا يدري ماذا يقول أو يفعل . وأخيرا قال لها

« فليكن . سأذهب بك الى حيث تريدين .. الى الفندق .

ومشيا ذراعا في ذراع . وراح يحدث نفسه قائلا :

« ماذا دهاني ؟ .. لقد اختلط الأمر علي . ولم أعد أدري من أمر نفسي شيئا . لقد أغضبتها ، وأغضبت ليديا ، وأنا وحدي اللوم » .

وبلغا من سيرهما حيث أودعا أمام المنعم سيارتهما وفي هذه اللحظة كانت ليديا موريللي وصديقتها منصرفين من المنعم . وكان عليهما أن يتريثا الى أن يتحرك كلير فايت بسيارته . ولم يكن ثمة بد من أن تبدأ كلير فايت تحية وتقدم اليه صديقها . واستتبع ذلك اتمام التعارف بين المرأتين . وبينما كان كل من الرجلين منهمكا في مناورة التحرك بسيارته في الشارع الضيق ، كانت ليديا تشيق الخناق على ليليان لتعرف منها كل ما تريده

منها ، في جرأة لا تتفق وحداثة عهدهما بالتعارف . وكانت ليليان بدورها ، حريصة على أن تتجاهل هذه المناورة وتجيب عما يوجه اليها من أسئلة في مداجاة ورقة ، أبدت على الأخرى عدوانها المقنع . ولم يخف هذا على صديق ليديا ، صارحها بما تبينه ، عندما استقلت سيارته ، وذهب كل في سبيله .

• • •

وفي طريق العودة بالسيارة قال كليرفايت لليليان ، لقد « أديت دورك خير اداء أنها لم تعرف منك من عسات أن تكوني . ولا من أين أنت قادمة ، ولا أين تقيمين » .

ـ ولكنها ستعرف كل شيء علي .

ـ متى ؟ متى .

ـ من صانع زيائي . لقد عرفت من يكون .

ـ وهل صديقك منها ذاك ؟

ـ لا يعنيني هذا في كثير أو قليل . سر بنا عن طريق ميدان الكونكورد . فاليوم يوم أحد . وستكون النافورات مضاءة .

ـ أنك ما عدت تهتمين بشيء . ترى ماهو السر في ذلك ؟

وجال في خاطرها ما كانت تود أن تجيب به لانني أعرف أن منيتي قد حانت ، وأن أيامي في الحياة ، معدودة .. لقد وطنت نفسي على ألا أرى من الحياة غير جانبها المشرق ، وعلى ألا أدع شيئا ما يمكر على صفو هذه الحياة . ولكنها قالت له لتغير مجرى الحديث ، « تأمل هذه النافورات ! » .

وقاد سيارته على مهل حول الميدان . وكانت ترى في كل ما حولها الجمال ، وتمتع ناظريها بمشهد المياه

المتغيرة الالوان ، ونصت لتسمع في خريرها همسات الحالمين « يالله من ميدان جميل ! »

— اجل . هذا الميدان الجميل كان مسرحا لمأساة التاريخ ، ومشهدا لقطع راس ماري انطوانيت في يوم ما . ما أعجب تصاريف القدر !

— وتقدم بنا الى الشانزليه ، ليتيسر لنا مشاهدة نافورات روندبوا .

وسألها كلير فايت ، بعد أن بلغ من سيره تلك النافورات ، « وهذه ، ألا تثير اهتمامك هي الاخرى ؟ !

— ان روعتها لا تقاوم .

وشعر بالرغبة في ان يودع شفتيها قبلة تطفيء ما في قلبه من هيام . ولكنه لم يكن واثقا مما سيكون من أمرها معه . ووجد نفسه يقول لها في حرارة وانفعال :

— احبك . ليليان ، هلا نسيت كل شيء . كل شيء عن هذه المرأة .

— ولماذا لا تكون لك صاحبة ؟ وهل تعتقد أن هذا لم يكن من شأني ؟

— في الصحة ؟

— بل في باريس . انني لا أطيق الوحدة . والان ، هيا بنا الى الفندق لانني متعبة .

واندفع كلير فايت بسيارته وهو جد محنق لمواجهته بما أثار غضبه بينما يشعر بالعجز عن مناقشتها في ذلك ، بعد ان تكشف لها أمر علاقته بليديا . ومهما يكن من أمر ، فان ما يعنيه الآن ، هو الا يفقدها . وانه لايدري ماذا هو فاعل ؟ أنه لا يستطيع الان أن يودعها عند باب الفندق ، ثم يواصل طريقه . أن هذه هي فرصته الاخيرة ، فان هي افلتت من يده ، فسيفقدها الى الابد .

وعند باب الفندق ، قرر الا يودعها ، بل قال للحارس :

— هل يمكن أن تأتينا بشيء من المطبخ ؟

— بكل سرور ، ياسيدي .. ماذا تريد ؟ شمبانيا بيرة ؟

— نريد قبل هذا قليلا من الكافيار .

— هذا غير ممكن . لان مفتاح الثلاجة مع المديرة .

— اذن فلتاتنا به من مطعم لابيروز الكائن عند الناصية . وسنقف في انتظارك هنا . وساحل محلك ريثما تعود .

فانبرت ليليان قائلة ، « ليست بي رغبة في تناول شيء من الكافيار » .

— ماذا تريدين اذن ؟

— كليرفايت ، أنني لا أصطحب معي أحدا في مثل هذه الساعات من الليل .

وأردف الحارس قائلا : « في الواقع ، ان السيدة لا تصطحب احدا عند عودتها . ان هذا أمر غير مألوف هل آتيك بزجاجة من الشمبانيا ؟

— الى بها ، وباي طعام تأمر به السيدة . هيا ، تحرك .

• • •

وعاد الحارس يحمل الشمبانيا ، وما أمرت به ليليان من طعام . واستفسر منه كليرفايت عما اذا كان لديه غرفة خالية له ان الغرفة رقم ٦ المجاورة لغرفة ليليان خالية . وأمره كلير فايت بأن يحمل اليها الطعام والشراب ، كما أمره بشراء قطعة من الصابون وفرشاة اسنان وبعض حاجيات أخرى ، وان يترك هذا كله أمام باب غرفته في الصباح .

وبعد أن استقر بهما المقام فى غرفتها ، قال لها كيرفايت : « كنت أخشى أن تركتك الليلة ، ألا نلتقى ثانية » .

وكانت ليليان جالسة فوق قاعدة النافذة . فرنت اليه قائلة

« وهذا ما يدور بخلدى كل ليلة » .

ـ ماذا تقولين ؟

ـ أننى قبلا أرى ما أراه ثانية .

وشعر بالم دفين فى صدره . ورآها حيث تجلس ، تمثالا للوحدة القاسية . فقال لها

« أحبك لست أدرى ما لهذا الاعتراف من صدى فى نفسك ، ولكنه تعبير صادق عما أشعر به » .

ولم تعقب بشىء . واستطرد قائلا :

ـ أنك تعرفين أننى لا أقول لك هذا نتيجة لما حدث الليلة ، أننى لا أحب أن أكون سببا فى ايلامك .

ـ أعتقد أننى أبعدما أكون عن أن يساء الى . لقد سبق لى أن صارحتك بهذا تعقيبا على ما حدث .

ولم يدر كلير فايت بمادا يعقب على قولها هذا . ان الغموض يكتنف ما تقضى به اليه . وآثر أن يدع الامر عند هذا الحد . فتأملها قائلا :

« أن كل ما فيك جميل أخاذ . ألا تريدين أن تأكلى أو تشربى شيئا » .

ـ بلى . تاولنى ما تشاء فالليل لنا .

ـ بعد بضعة أيام ، سأسافر الى صقلية للاشتراك فى سباق يجرى هناك . هل تسافرين معى ؟ أن احتمال فوزى بهذا السباق بعيد !

ـ وهل تريد دائما أن تكون الفائز ؟

ـ هذا ما يجب أن يتحلى به الانسان .

الفصل العاشر

كان عصفور الكناريا يصدح مقرنما فى هناء . وصحا كيرفايت من نومه على النغم الجميل . والقى نظرة على ساعته . أنها ساعة الظهيرة . تلك أول مرة منذ شهور ينام فيها الى مثل هذه الساعة من النهار . ونهض يفتح باب غرفته ، ليجد ما أمر به الحارس من حاجيات . وعاد الى الحمام يغتسل .ثم يرتدى ثيابه .

وتوجه الى غرفة ليليان ، التى استقبلته هاشة ، وهى تسأله عما اذا لم يكن قد تناول طعام افطاره بعد ؟ فلما أجابها نفيا ، قدمت اليه الخبز ، والزبد والمربى . ثم اشارت الى رسالة فوق المنضدة قائلة : « انها من عمى جاستون . أنه سيقيم مأدبة عشاء بعد الغد ، تكريما له . هل تحب أن أتيك بدعوة ؟

ـ كلا .

ـ حسنا . أنها قد تفسد الغرض من هذه المأدبة . أنها تقام بهدف اختيار زوج ثرى لى . أم تراك من الاثرياء ؟

ـ ليس لاكثر من بضعة أسابيع . هل تزمعين الزواج اذا ما عثرت على الزوج العريض الثراء ؟

ـ الى بكاس من النبيذ ولا تكن غبيا .
ـ أنك قادرة على كل شيء .
ـ منذ متى سيطر على ذهنك هذا الاعتقاد ؟
ـ منذ أن فكرت في أمرك مليا .
ـ ومتى تسنى لك أن تفكر في أمري ؟
ـ بينما كنت مستلقيا في فراشي . انك طراز فريد في بابه ، لك قوانينك الخاصة بك .
ـ حسنا . انه اعتقاد لا يقدم ولا يؤخر . ماهي مشروعاتك عن مساء اليوم ؟
ـ مساء اليوم ، سأصحبك معي الى فندق ريتز ، حيث تجلسين في البهو في انتظاري ريثما أصعد لاستبدال ثيابي . وبعد ذلك ، نتناول طعام الغداء ، وفي الليل نتناول طعام العشاء وهكذا سيكون غدنا ، لكي نفسد على العم جاستون خطته لبعد الغد

ووقفت تتطلع من النافذة ، دون أن تجيب بشيء . فاستطرد قائلا

، وأن شئت ، ذهبت بك الى نوتردام ، أو الى أحد المتاحف ، أو الى برج ايفل . أو الى أي مكان آخر . أيتها المبعوثة من بلاد الاغريق هل أنت سعيدة ؟

ـ وما هي السعادة ؟
ـ الم تدركي معناها بعد ؟ ومن ذا الذي يدري حقيقة كنهها ؟ قد تكونين على حق . قد تكون في الرقص فوق خيط واه على حافة هاوية !

• • •

كانت بيليان في طريق العودة من مأدبة عمها جاستون . وكانت تستقل سيارة الفيكونت دي بايستر الى فندقها ، بعد أن أمضت أمسية ممتعة . وكان مدعوا الى

المأدبة ستة رجال وسبع نساء . ومن بين الرجال أربعة غير متزوجين . وكانوا جميعا من أثرياء القوم ومثلها الفيكونت دي بايستر ، «ولماذا اختارت الاقامة على الضفة اليسرى ؟ هل كان هذا لدواع خيالية ؟!

ـ لقد كان اختيارا عفويا .
ـ كان يجب أن تقيمي بأحد مساكن ميدان فاندوم . لدي مسكن على هذا الميدان . وهو مسكن لا أستفيد به .
ـ هل تؤجره لي ؟
ـ بكل سرور .
ـ وما هي قيمة ايجاره ؟
ـ ولم هذا الحديث المادي البحت ؟ اذا حاز المسكن اعجابك ، فهو لك .
ـ بدون أية شروط ؟
ـ بدون أية شروط . أن هذا لمن دواعي سروري . هل توافقين على زيارة المسكن غدا ؟ وهل تقبلين دعوتي لتناول الغداء بعد ذلك ؟
ـ وهل يتسع المسكن لأكثر من واحد ؟
ـ أجل . ولماذا ؟
ـ ربما أردت أن يشاركني فيه غيري .
ـ ومع ذلك ، فاني أفضل لك الاقامة بمفردك لفترة ما . أن لك في باريس بضعة أسابيع فقط . وأرى أنه من الخير لك أن تتعرفي على معالم المدينة أولا .
ـ معك الحق .

وتوقفت بهما السيارة أمام الفندق . فسألها الفيكونت ، « هل اتفقنا على اللقاء غدا ؟

ـ يجب أن أفكر في الأمر مليا . هل يضرك في شيء أن أسأل عمي رأيه ؟
ـ لو كنت مكانك ، لما فعلت شيئا من هذا القبيل ، فقد

بسوء تأويل الامر . ومهما يكن من أمر ، فاني أعتقد أنك لن تطلبي مشورته . اسمحي لي يا آنسة ، بأن اسارحك القول : انك أمام رجل عرك الحياة ، وانت بحاجة الى هذا الطراز من الرجال طالبت ليلتك يا آنسة

• • •

ارتقت الدرج الى غرفتها وهي غارقة في خواطرها . لقد كانت مادية عدها تجربة جديدة لها . وكانت تشعر بما يشعر به القادم من كوكب آخر . اذ لم يتسن لها أن تفهم ما يتحدث عنه الضيوف . أن بعض ما كانوا يتحدثون عنه باهتمام ، كان من الامور التي لا تعيرها أي اهتمام . وكان عرض الفيكونت دي بايستر ، هو الشيء الوحيد الذي شد اهتمامها في هذه الامسية

وبادرها كليرفايت الذي كان في انتظارها بسؤاله :

ـ هل كانت مادية ناجحة ؟

ـ حسبت انك جالس تعاقر الخمر في مكان ما .

ـ لم اشعر برغبة في ذلك . او على الاقل لم اعد اسيغ الشراب في غير وجودك .

ـ وهل كان من عادتك ادمان الشراب ؟

ـ في فترات ما بين كل سباق . وقد يكون هذا هربا من ذات نفسي . ولقد اقلعت عن ذلك الان . فقد امضيت بعد ظهر اليوم في سانت شابيل . وغدا سأقوم بزيارة لمتحف كلوني . لقد أعجب بك كل من رآني في صحبتك . هل تحبين أن نخرج معا ؟

ـ ليس الليلة !

ـ لقد امضيت أمسيتك مع اناس يعتقدون ان الحياة ليست سوى مطبخ ، وغرفة نوم ، ولا يدركون أنها قارب شراعي متعدد الاشرعة ، قد ينقلب بهم في أية لحظة .

انك بحاجة الى بعض التغيير ، الا تحبين أن تقوم برحلة ؟

ـ أين ؟

ـ في كل شارع وفي كل ملهى ليلي . أن هذا البهاء وتلك الاناقة يجب ان تراهما كل باريس

ـ فليكن ما تريد .. هلم بنا .

وجلس كليرفايت ينتظر في سيارته وكان المطعم المجاور للفندق قد بدأ يغلق ابوابه وسمع صوتا يقول :

ـ العاشق الولهان . الست اكبر سنا من أن تصلح لهذا الدور ؟

وكان الصوت صوت ليديا موريللي . وكانت تتقدم صديقها في انصرافهما من المطعم . وأجابها كليرفايت :

ـ فعلا . اكبر بكثير .

ـ انها لمهزلة ! دورك الجديد هذا مع تلك الفتاة .

ـ ان حديثك هذا ينم عما تركته هذه الفتاة من أثر في نفسك . انها شهادة في مصلحتها . هل أخذت بجمالها الى هذا الحد ؟

ـ جمالها ! تلك الاناقة التي تقيم بفندق من الدرجة الرابعة ولا تمتلك من الثياب سوى ثلاثة تتظاهر بها .

ـ ثلاثة فقط ؟ كنت أعتقد أنها ثلاثون . ليديا ، منذ متى تقومين بدور المخبر السري لجمع المعلومات عن صغار الفتيات ؟ الم نتجاوز هذه المرحلة منذ زمن مضى ؟

ولم تجد ليديا متسعا من الوقت للاجابة والتعقيب ، اذ كان صديقها قد لحق بها ، فتأبطت ذراعه وذهبت في طريقها .

وبعد قليل أقبلت ليليان ، فاستقبلها قائلا :

ـ لقد سمعت لتوي من بعضهم اطراء سحرك . لقد آن الاوان لتكوني من المحجبات .

ـ هل طال بك الانتظار ؟
ـ كلا ، ان فرحة اللقاء تقصر من أمده .
وانطلقا في جولتهما .

كانت الساعة الرابعة صباحا ، حينما سألتها كليرفايت :

ـ هل تواصل جولتنا الى مكان آخر ؟
ـ أجل . أم هل تراك متعبة ؟
ـ ليس بعد . هل سررت بهذه الجولة ؟
ـ كل السرور .
ـ حسنا . هيا بنا الى ملهى آخر .

لم يزل حي مونمارتر يضطرب بحمى ما بعد الحرب . ولو لم تكن ليليان ، لما فكر كليرفايت في زيارة ملاهي هذا الحي . ان كل شيء جديد في نظرها . انها جوانب الحياة التي حرمت منها وتاقت لمشاهدتها طويلا وهذا ما يجعلها مستعدة بكل شيء . وكل هذا يضاعف من تعلقه بها ومن محبته لها . انها طراز جديد من النساء ، يرى في كل ما حوله الجمال ، ويسعد بكل ما يقع عليه بصره . ووجد انه يقول لها : أظن أنني اسرفت في الشراب » .

ـ وكيف أدركت هذا ؟ ما هو الحد الفاصل بين الاعتدال والاسراف ؟
ـ هو الحد الفاصل بين المعرفة والانكار .
ـ ليتني أتجاوز هذا الحد الذي أنكر فيه نفسي !

يالها من مخلوقة عجيبة ! انها تريد أن تمر بكل تجربة ! ان كل ما صدر عنها ينبيء عن دخيلة نفسها . انها تدرك أن أيامها في الحياة معدودة ! وهذا الادراك

هو أساس كل مشاعرها . انه كالخمر يتملك من المدمن . وأبرى يقول لها : « أعبدك » .

فأجابته لانكثر من هذا القول ، خشية أن يصبح لدى كالماء والنبيذ .

ـ ولكنني لاأستطيع ان أكبح جماح نفسي وأنا في صحبتك . فماهي وجهتنا التالية ؟
ـ الى الفندق لانني أريد أن انتقل منه .
ـ فليكن . هيا بنا لنعد حقائبك .
ـ انها معدة فعلا .
ـ الى أين تريدين الانتقال ؟
ـ الى فندق آخر . ان امرأة ما قد دأبت على الاتصال بي تليفونيا ، في اليومين الماضيين ، لتقول لي أن أعود من حيث أتيت ـ الى آخر هذا مما تردده على سمعي .
ـ ألم تتبيني صوتها ؟
ـ انها تتكلم الفرنسية بلكنة أجنبية .

ودار بخلد كثير فايت أنها قد تكون ليديا موريللي ، على الارجح . فقال لها :

ـ ولماذا لم تحدثني بذلك من قبل ؟
ـ ولماذا ؟ هل يمكن ان أجد بفندق ريتز غرفة خالية ؟
ـ يمكن .
ـ حسنا . ان عمي جاستون سيغمى عليه عندما يسمع عن مكان اقامتي الجديد .

• • •

قالت ليليان لكثير فايت ، وهي جالسة فوق حافة فراشها ، تستكمل معه اعداد حاجياتها :

ـ انني أشعر بالاسى لمغادرتي هذا الفندق . لقد كنت

أحب كل شيء فيه . غير انه من دأبي أن أحب بدون أسى . هل أدركت ما أعني ؟

ـ هذا ما أخشاه . تعنين أنك لا تأسين على شيء .

فضحكت . وارتشفت جرعة من كاس النبيذ الذي كان بيدها معقبة :

ـ انني لا أنظر الى الوراء . ان ما أتركه ، لا أشغل نفسي بالتفكير فيه . انه يصبح ماضيا في طوايا النسيان .

ليس من شك في أن مصيري معها سيكون كذلك ـ تهجرني كما تترك فندقها . تلكم هي ليليان من شغلتني عما عداها .

وقطعت عليه حبل استغراقه بقولها :

ـ انني جد مغرمة بك . لماذا لا أناديك باسمك ؟

ـ هذا ما لايفعله غيرك .

ـ اذن ، فسيكون هذا من أقوى الدوافع لذلك .

وعاونها كلير فايت على ارتداء معطفها . وأودع حقائبها سيارة أجرة تبعت سيارته . وسألته ، وهما في طريقهما الى الفندق :

ـ هل تطل غرفتي بانريتز على ميدان فندوم ؟

ـ أجل .

واستدار بسيارته في الميدان . وكان السكون مخيما على هذا الميدان ، في تلك الساعة المبكرة من النهار . وتوقف بسيارته أمام مدخل الفندق ، قائلا :

ـ انني جد سعيد . سعيد بأننا معا . وبعد أن تنالي قسطك من الراحة ، سنتجه جنوبا ، في طريقنا الى صقلية وتارجو فلوريو . وسنقطع المسافة على مراحل هينة .

الفصل الحادي عشر

في صقلية ، كان الربيع في أوج ازدهاره . وكان طريق تارجو فلوريو ، بأميالة السبعة والستين ، بمنحنياته التي تبلغ الالف والنصف تقريبا ، غير مصرح بالمرور فيه عدة ساعات يوميا ، لكي يتاح للمشتركين في السباق ممارسة التدريب على القيادة فيه ، والتعرف على مسالكه .

وكان الفريد توربانى ، هو القائد المرافق لكلير فايت . وهو ايطالي يبلغ الرابعة والعشرين من عمره . وكانا يمضيان نهارهما في هذا الطريق ، ويعودان في المساء وقد نال منهما التعب ، والجوع والظمأ .

وكان كلير فايت لا يريد لليليان أن تشهد التدريب ، كما تفعل غيرها من الزوجات والصديقات . ورأى أن يقدمها الى صديق يمتلك بيتا يطل على البحر ، يمكنها أن تقضي به ساعات يومها . وهذا الصديق ليفالي ـ هو خير من يعهد بها اليه .

وكانت ليليان ، تقضي أيامها ، بين الشاطىء وحديقة الفيلا ، التي تتناثر فيها تماثيل من الرخام في كل ركن

منها . ولم تشعر ليليان برغبة في متابعة التدريب ، وان كانت تحب سماع هدير المحركات ، وهي تنفذ خلال أشجار البرتقال ، فيتألف من حفيفها ، ومن ذاك الهدير ، ومن صوت تلاطم الامواج ، سيمفونية رائعة . وكان يخيل اليها أن هذا اللحن المؤتلف ، هو حديث كلير فايت يهمس به في اذنيها . وكان كلير فايت دائما معها حيث تكون . كان معها على الشاطىء ، وفي الحديقة ، وبين خمائلها يطالعها وجهه من خلال ما تقرأ .

وفي المساء ، يقبل كلير فايت ، ويسمع هدير محرك سيارته عن بعد ، وتسمع من ليفاللي أنه لا يحب الاصوات الصاخبة التي تعيد الى ذهنه ضوضاء قاذفات القنابل ابان الحرب . وتنعم ليليان بتلك الساعات الهانئة التي تمضيها مع الرجل الذي شاء القدر أن يضعه في طريقها ، ويخلد كلير فايت الى الراحة بعد عناء النهار .

وقبيل السباق ، اقام ليفاللي مأدبة دعا اليها الكثيرين ، وكان الملعب دافئا في تلك الليلة التي تتلألأ سماؤها بوميض النجوم ، وتعكس مياه البحر الهادىء قرص القمر الصاعد بين ثنايا الافق . وكانت ليليان مأخوذة نشوى بكل ما حولها . وكانت تجد فيما يحيط بها كل ما كانت تتوق اليه وتصبو ، طوال تلك السنين التي قضتها بين الجبال .

وكان كل من كلير فايت وليفاللي جالسين بالشرفة ، يتابعان الرقص ، حينما قال الثاني للاول :

« ان الانسان اما أن يكون بين المشاهدين أو بين المشتركين في الاداء . ومن وجهة نظري ، أفضل أن أكون من المشاهدين . ان من يحاول أن يكون من الفريقين في وقت واحد لا يمكن أن يتقن أيا من العملين . »

وكانت ليليان تراقص الامير فيولا . واستطرد ليفاللي قائلا : « انها اللهب المتوقد . تأمل كيف ترقص ! وتأمل غيرها من الراقصات ! ان رشاقتها وسحرها وأناقتها تبز الجميع . كيف التقيت بها ؟ »

ـ في لحظة مواتية من لحظات الزمان .

ـ ان مثل هذه الفرص لا تسنح دائما .

وكانت ليليان تراقص فيولا حينا ونوريللي حينا آخر . وكانت الامسية تفيض سحرا ، وبهاء وحياة . ولم تكن لتسمح غير صوت الموسيقى ، وترجيع الاقدام الزاحفة تتسق مع النغم . وهذا ما كانت تحلم به ليليان في ليالي وحدتها بين الجبال ، وهي تستمع الى الموسيقى المنبعثة من الراديو بجوار فراشها . ورأت أن الموت أبعد ما يكون عنها في مثل هذه الليلة التي تفيض حياة وجمالا . وكانت هذه الخواطر وغيرها تتردد في ذهن ليليان وهي تنتقل من ذراعي راقص الى آخر .

وسألها فيولا عندما رآها تبتسم :

ـ ترى ماذا يجول في خاطرك ؟

ـ ان الخواطر او بعضها ، غالبا ما تكون سرا من الاسرار .

وكانت تخلو حينئذ بالقرب من كلير فايت الذي رآه يتطلع اليها مبتسما . ودار بخلدها : أنه شديد التعلق بي ، وأنا أحبه لانه لا يسألني عن شيء . ترى متى سيبدأ في توجيه الاسئلة الي ؟ أرجو ألا يأتي هذا اليوم . فليس لدينا من الوقت ما يتسع لشيء من هذا القبيل .

وقالت احدى النساء من الجالسات في ركن الاميلات : « تأمل فيولا . يبدو أنه يعتقد أنه لاتوجد فتاة في هذا الحفل خلاف هذه الاجنبية » .

وتردف سيدة أخرى قائلة : « هذا بديهي . لئن راقص احدى فتياتنا ، لعرض عليه أشقاؤها الزواج منها ، ولرأوا في ملازمته لها أنه أصبح خطيبها » .

ـ من أين قدمت ؟ انها ليست ايطالية .

ـ ان مثلها ممن يصرفن أمثال فيولا عن فتياتنا .

وبعد أن فرغت ليليان من مراقصة فيولا شابكت ذراع توريانى فى طريقها الى حيث كان يجلس كلير فايت .

ـ لماذا لا ترقصنى ؟

ـ انى معك فى كل خطوة ، دون أن انهض من مقعدى .

وضحك توريانى معقبا :

ـ انه لا يحب الرقص ولا يجيده .

ويؤمن كلير فايت على هذا قائلا :

ـ هذا صحيح . انى راقص فاشل . كان يجب أن تثنينى هذا ، ليلة راقصتك فى فندق بالاس .

ـ لقد انسيت أمر هذا التاريخ البعيد .

وعادت ادراجها الى حلبة الرقص فى رفقة توريانى . وعاد ليفالى الى متابعة خطواتها مرددا : «انها قطعة من اللهب ، أو قل خنجرا حاد الاطراف . ان لجمال المرأة صدى عكسيا فى نفسى .. بماذا نفسر ذلك ؟!

ـ لاننا ندرك أنه سيمضى ويولى مع الايام ، ونود لو قدر له الدوام .

وجلس كل من الرجلين يشرب كأسه فى سكون وصمت ، وراحا يتطلعان الى ليليان التى كانت تراقص توريانى ، وتبتسم لكلير فايت كلما اقتربت منه .

الفصل الثانى عشر

صاح كلير فايت ، يستفسر عن وضعه فى السباق ، عندما توقف قليلا . وقال له توريانى :

ـ السابع . كيف وجدت الطريق ؟

ـ شاق . هل رأيت ليليان ؟

ـ اجل . انها جالسة فى المنصة .

وقدم توريانى قليلا من عصير الليمون الى كلير فايت ، واقبل مدير السباق يصدر الامر بمواصلة السير ويقول لكلير فايت :

« ان ديفال أمامك . عليك أن تلحق به وتتقدمه . لسنا نبغى أكثر من هذا أننا فى المقدمة . هيا ، الى الامام ! »

واندفع كلير بسيارته . ورأى عن بعد ، عند الافق ، الغبار الذى تثيره سيارة ديفال وراح يطوى الطريق المتعرج ، بمنحنياته الخطرة ، فى مهارة القائد المقدام المحنك . الى أن لحق أخيرا بسيارة ديفال ، الذى تعمد ألا يفسح لكلير فايت الطريق ليتقدمه . وأخيرا انتهز كلير فايت فرصة أحد المنحنيات الخطيرة ، ليمرق كالسهم بجوار سيارة ديفال ، الذى فوجىء بهذه الحركة الجريئة التى لم تكن فى حسبانه .

واندفع كلير فايت في طريقه، متحديا كل عقبة ، غير عابىء بمنحنياته التي تكاد أن تكون قائمة الزاوية ، وقد أنسى كل شيء ، اللهم الا الفوز في هذا السباق .

وكان أن بلغ من سرعته ، تلك المرحلة التي يفقد فيها السائق السيطرة على سيارته . ووجد نفسه أمام منحن ، ينحرف بعيدا احتشد عنده جمع من الناس ، وحاول بقدر ما في وسعه من حذق القائد أن ينحرف منهم . وكانت النتيجة أن استدارت به السيارة في عنف، ثم اندفعت الى الجانب الاخر من الطريق ، لتنفذ في مجموعة من الاشجار والاحجار ، وينفجر اطارها ، وتتوقف عن السير .

وعاد الجمع الذي كان قد تفرق خوفا ، وقد تصايح أفراده وتلكبوا ليروا ما انتهى اليه أمر المتسابق وسيارته . وكان كل ما يعنى كلير فايت في هذه اللحظة ، ألا يضع أحد منهم يده على سيارته ، وألا يمد له يد المساعدة ، لان هذا من المحظورات بناء على قوانين السباق . وراح يصرفهم عنه صائحا : « ابتعدوا ! ابتعدوا ! »

وعلى الرغم مما كان يشعر به من آلام، وعلى الرغم من الدماء المنبثقة من أنفه ، فقد جاهد حتى استقام واقفا أمام سيارته ، ليحول بينهم وبين الاقتراب منها .

ووقف كل في مكانه . وتبينوا أن حالته ليست بالخطيرة . وأسرع يستبدل الاطار المنفجر ، وهو يسب ويلعن . ورأى أن في وسعه أن يستأنف القيادة بذراعه الايمن الذي لم يصب برضوض ، وأن عليه أن يواصل السير الى حيث يقف توريانى في انتظاره ليحل محله . وصاح في الجمع المحتشد ليفسح الطريق .

وعاد كلير فايت الى مقعد القيادة . واستدار بسيارته على مهل . ومرقت بجواره أكثر من سيارة . وكان كل قائد منهم يحييه برفع ذراعه . وكان لا يفتأ يلوم نفسه على استهتاره وعدم تبصره .

وكانت ليليان جالسة في منصة النهاية . وكانت تحاول السيطرة على أعصابها مستعيدة هدوءها وعدم مبالاتها بأي شيء مهما كان من أمره. غير أن هذا كان من العسير عليها ، أمام ما يحيط بها من ضوضاء وحركة دائرة . وراحت تتابع السيارات المندفعة ، وتحاول الاستماع الى ما يعلنه المذيع من أرقام وأعداد . وبدأت تألف هذه الجلبة ، وتستعيد القدرة على التفكير والتدبر . ودار بخلدها مدى ما تتعرض له حياة هؤلاء المتسابقين من مخاطر . ان الحياة ليست بالشيء الهين الذي يلقى به جانبا هكذا بكل استهتار . ان الشجاعة والاقدام شيء وعدم الخوف والاستهتار شيء آخر . ان الشجاعة ادراك للخطر ، أما عدم الخوف فهو مجرد جهل به .

وسمعت صوتا بجوارها يقول : « كلير فايت أين هو ؟ » فاصاخت السمع. «ترى ماذا حدث له ؟ » كان يجب أن يمر أمامنا منذ فترة ما [illegible] »

واستبد القلق بالجلهور المحتشد . ورأت ليليان توريانى يتطلع اليها ، ويومىء لها بأن تهدأ وبأن شيئا لم يحدث . وبدلا من أن يشيع هذا الطمأنينة في نفسها ، أشاع القلق والجزع . وتبادر الى ذهنها . أنه قد ألم به مكروه ، وأنه تعرض لحادث خطير . وجلست ساكنة لا تتحرك . وخيل اليها أن الزمن لا يتحرك .

وان الدقائق اصبحت ساعات . وامضها الانتظار ، وشعرت بان صدرها يرزح تحت عبء ثقيل ، واخيرا طرق سمعها صوت المذيع يعلن : « لقد تعرضت سيارة كلير فايت ، رقم ١٢ لحادث عند احد المنحنيات ولم تصلنا انباء تفصيلية بعد . »

وتطلعت ليليان فيما حولها .. ان كل شيء كما هو — السماء بزرقتها وصفائها ، وجو الربيع بدفئه ، والناس بلهوهم واهتماماتهم — غير ان ثمة في مكان ما بقعة لا لون ولا جلاء لها ، لايكف فيها كلير فايت عن الصراع ، لم لعله قد توقف عنه .. وملك منها خاطر الموت المخيف ، وكادت انفاسها ان تتوقف اشفاقا ورهبة ، والفت نفسها في لحظة من لحظات السكون الشامل : سكون العدم . وسمعت صوت المذيع يستطرد قائلا : « ان كلير فايت بخير . اذلم تكن اصابته بالغة ، وقد تمكن من مواصلة السباق بسيارته . انه يسير في المؤخرة . »

وتاملت ليليان وجوه القوم المنتظرين . ورأت في ملامحها خليطا من مختلف المشاعر ، ما بين معجب ، وبين مستاء ، وبين من يسرى عنه ، ان كلير فايت لم ييأس ، ولم يثنه عن عزيمته شيء .. انه يواصل السباق ويستانف القيادة ثانية ، على الرغم مما تعرض له . وشعرت ليليان بهرجل الغضب يسرى في جسدها . واسدل بينها وبين هؤلاء القوم اللاهين ستار من البغض والكراهية ، كرهت هؤلاء الذين يجدون متعة في مشاهدة السباق حتى الموت وكرهت كلير فايت الذى لايجد سوى لعبة الموت عملا يرتزق منه . ولاول مرة منذ مغادرتها للمحطة ، يدور بخلدها طيف فولكوف ، ثم وضع نظرها على كلير فايت قادما بسيارته ، وقد تخضب وجهه

بالدم ، ورأته وهو ينتزع نفسه ببطء وصعوبة من سيارته .

● ● ●

وقام الميكانيكيون بفحص السيارة ، وباستبدال سائر اطاراتها . ووقف كلير فايت يقول لتوريانى :

— لولا هذا الاطار اللعين .. ان السيارة بخير .

وصاح المدير يأمر توريانى باحتلال مقعد القيادة فيها . وقفز توريانى اليها ، وسرعان ما انطلق بها . واستفسر المدير من كلير فايت عما اذا كان بذراعه كسر ، فاجابه بالنفى . واقبل الطبيب الذى قال له بعد فحصه ان تستطيع ان تواصل هذا السباق . »

وقام الطبيب بتضميد جراحه ، وتثبيت ذراعه اليسرى بالضمادات والاربطة اللاصقة . وبعد ان اطمأن المدير على حالته ، استفسر منه عما حدث ، ووقف يستمع اليه وهو يروى له كيف نجا من الموت باعجوبة .

واستدار المدير يتابع السباق ، ويرجو لتوريانى التوفيق في تعويض مافات . وسأله كلير فايت عمن لم يزل داخل السباق من فريقهم ، فعرف منه انه وبير وانه في المكان الخامس .

ومرق توريانى كالسهم ، وهو يلوح ببده ، ثم تطويه المنحنيات . وتجدد الامل في نفس المديرة الذى كاد ان يسجد داعيا مبتهلا . وكان توريانى في كل دورة ، يكتسب مسافة جديدة ، حتى اصبح يحتل المكان الرابع ، بعد وبير الذى اصبح في المكان الثالث . غير انه حدث في الدورة قبل الاخيرة ، ان توقفت السيارة بتوريانى ، الذى اسند رأسه الى عجلة القيادة فاقد الوعى .

وراح المدير يرغى ويزبد متسائلا عما حدث :

« ألا تستطيع مواصلة السير ؟ ماذا حدث ؟ ارفعوه من السيارة . كلير فايت ! رباه ! رباه ! الا يمكنك ان تحل محله ؟ ان السيارة بخير .. »

وسرعان ما احتل كلير فايت مقعد القيادة ، بين ابتهالات المدير وصلواته . واعلن المذيع ان كلير فايت يعود الى السباق ، بدلا من توريانى .

وابصرت ليليان السيارة تمرق امامها كالسهم . واستطاعت ان ترى كتف كلير فايت المصمد . ورددت قائلة :

ـ « هذا الاحمق .. هذا الطفل الذى لم يشب عن الطوق .. ليس فى هذا العمل شىء من الشجاعة . انه مقضى عليه لا محالة . ان هؤلاء الاصحاء لا يعرفون شيئا عن الموت .. هذا الموت الذى كانت تلازمنا فكرته بين الجبال . »

وامتدت اليها يد تدس بين اصابعها بطاقة دعوة . فالتقت بها جانبا ونهضت تزمع الرحيل . وكانت محط انظار الجميع . وهبطت الدرج فى طريقها الى مغادرة المنصة . وقد استبد بها السأم .

واستغرقت مع ما يجول بذهنها من خواطر . وفكرت فى ذات نفسها مليا . انها يجب الا توزع اهتمامها بين اثنتى عشرة تاقورة . انها تاقورة واحدة التى يجب ان تولها اهتمامها . ان عودة مياه التاقورة الى الانبثاق من جديد رمز حى لما يجب أن تكون عليه حياتها الجديدة . انها يجب أن تبعد عن حياتها كل ما يعكر عليها صفوها .

ومضت قدما ، وكأن عبئا ثقيلا قد سقط بعيدا عن عاتقها . وخطت بعيدا عن المنصة التى تعد نقطة تحول فاصلة فى حياتها الجديدة . وسمعت وهى تبتعد ،

تصفيق الجماهير للسيارات المتقدمة الى الخط النهائى . وتوقفت ليليان عن متابعة سير هذا الى ان شاهدت سيارة كلير فايت . ثم استانفت مسيرها بخطوات متئدة ثابتة .

● ● ●

كان كلير فايت قد ازال مابوجهه من آثار الدماء ، وان كانت شفتاه لم تزل تدميان . ولحق بها قائلا :

ـ لا أستطيع تقبيلك . هل كنت قلقة من اجلى ؟

ـ كلا . غير انه لا ينبغى لك أن تعود لقيادة السيارات

ـ هل بلغ بى سوء القيادة هذا الحد ؟

وانبرى توريانى معقبا : « لقد كان عظيما . »

وحدجته ليليان بنظرة قاسية . واسرع كلير فايت ينقذ الموقف قائلا :

ـ لقد انتهى كل شىء . ليليان ارجو الا تفكرى فى هذا الامر ثانية . ان ماحدث لم يكن بالغا حد ما بدا به من خطورة .

وعادت ترد قولها :

ـ ينبغى لك الا تعود لقيادة سيارات السباق .

ـ لك ما تريدين . وسالغى العقد المبرم فهل يرضيك هذا ؟

وضحك توريانى قائلا : « وبعد غد نرتق ما فتق منه . »

واقبل المدير يسال كلير فايت : « هل ستحضر الليلة ؟ »

واومأ كلير فايت برأسه ايجابا . ثم اتجه الى ليليان التى رآها متجهمة الوجه قائلا :

ـ ماذا دهاك ؟ الا زلت مصرة على عدم عودتى للقيادة ؟

ـ أجل .
ـ ولماذا ؟
ـ لست أدرى كيف أبدى لك الاسباب . انه شعورى الذى يملى على هذا . لقد شعرت بالنفور مما رأيت . ومهما يكن من أمر ، فانت وشأنك . وربما لم يكن من حقى أن أتحدث اليك صراحة بما قلت ؟
ـ ان هذا من حقك دائما وأبدا .
فضحكت قائلة : كلير غايت: انى أحبك . ترى هل تشعر كل النساء بمثل ما شعرت به فى أعقاب السباق ؟ »
ـ لست أدرى . هل هذا الثوب من متجر بالنشياجا ؟
ـ لست أدرى أنا الاخرى .

وتحسس وجهه وكفه قائلا : ان وجهى سينتفخ الليلة . هل نذهب فى طريقنا الى فيلا ليفاللى ؟ »
ـ أن نذهب للقاء مديره ؟
ـ كلا . انه سيقيم حفلا بالفندق لمناسبة ما أحرزه من فوز .
ـ الا تحب الاحتفال بالنصر ؟
ـ ان كل نصر يهبط بعدد ما قدر لنا من انتصارات .

وتأملته ليليان مليا . فردد على سمعها ما سبق أن جهر به ثم أردف قائلا :

ـ انى فى أمس الحاجه الى بعض المكملات هذه الليلة، وانى الاضطجاع لاستمع اليك وانت تقرأين فصلا من كتاب (فى نقد العقل المحصن) .
ـ سمعا وطاعة . وبعد ذلك أريد أن نسافر الى فينسيا .
ـ ولماذا ؟
ـ لانها لا يوجد بها جبال ولا سيارات .

الفصل الثالث عشر

امتدت اقامتهما فى صقلية أسبوعين آخرين . وشفى كلير غايت من رضوضه وصابت لهما الاقامة فى فيلا ليفاللى المطلة على البحر . وكان لدى كلير غايت فسحة من الوقت قبل السباق التالى .

وسألها ذات يوم :

ـ هل تؤثرين البقاء هنا ؟ أم تحبين العودة ؟
ـ الى اين ؟
ـ الى باريس . أو الى أى مكان آخر . ان الطقس هنا بدأ يميل للحرارة .
ـ ومتى ينتهى فصل الربيع ؟
ـ اجل ، فى هذه البلاد . وفى وسعنا أن نتجه شمالا حيث يبدأ ربيع آخر ـ فى روما مثلا .
ـ ومتى ينتهى الربيع هناك ؟
ـ ستواصل متابعته ، اذا ما راق لك هذا فنستأنف السير شمالا الى لومباردى والبحيرات . ومن بعد نتجه الى سويسرا ، ثم الى ضفاف الراين، الى أن ينتهى بنا السير الى حقول هولندا المزدهرة على مشارف البحر .

وكأننا بهذا نوقف عجلة الزمن عن الدوران .

ـ هل سبق لك أن غمطت شيئا من هذا القبيل ؟

ـ أجل . فيما قبل الحرب .

ـ في رفقة امرأة ؟

ـ أجل ، ولكن الوضع كان مختلفا .

ـ دائما هكذا . لا تخف ، فنست بالغيورة .

ـ لكم وددت أن تكوني كذلك .

ـ وهل أغار من الماضي . أم هل تراني من الغفلة بحيث كنت أرجو أن تقول لي أنني المرأة الأولى في حياتك .

ـ هل نرحل ؟

ـ ليس بعد . أنني لا أريد أن أخدع نفسي بأن الزمن لا يمضي بنا قدما ، وأنه قد توقف عن السير . إن هذا كان شأنه معي طوال أيام الشتاء التي لا تنتهي ، حينما كنت مقيمة في المصحة . وكنت أروح وأغدو رهينة حبسي بحدرانه الجليدية العمياء .

ـ والآن ؟

ـ أنني سعيدة بدائرتي هذه كالراقص في حلبة الرقص .

وأودعت فمه قبلة ، تأكيدا لمشاعرها .

ثم تملك منها الضجر ، واستبدت بها الرغبة في الرحيل . وصارت أيام صقلية في اعتبارها شهورا . ولقد أمضتها تلك الليالي التي كانت تقضيها وحيدة ، إذ كانت حريصة على ألا يقضي كلير فايت الليل معها بطوله . إنها لم تكن تريد أن يسمع سعالها ، الذي كثيرا ما ينتابها ليلا . وإن كان كلير فايت لم يدرك السبب الحقيقي ، وعزا هذا إلى أنه نزوة من نزواتها .

واستقلت الطائرة إلى روما ، لتستقل منها أخرى إلى باريس . أما كلير فايت ، فكان سيلحق بها في باريس . وقامت بجولة بين خرائب روما وآثارها . وفي اليوم التالي ، جلست إلى إحدى الموائد الخارجية بمقهى بطريق فينيتو . وكان من المفروض أن تستقل طائرة المساء إلى باريس ، ولكنها ترددت . فقد وجدت أنها أسيرة لحالة نفسية من الانقباض الذي لا مبرر له . وكان أن قضت ليلتها في الفندق ، ولم تتوجه إلى مكتب الطيران قبل صباح اليوم التالي . وبين اللوحات السياحية المعروضة بالمكتب شاهدت لوحة لفينسيا . وجرى في خاطرها ، ما سبق أن تحدثت به إلى كلير فايت عن هذا البلد . فما كان منها إلا أن طلبت استبدال تذكرتها بأخرى إلى فينسيا . وبدا لها أنها يجب أن تزور فينسيا قبل أن تذهب إلى باريس ، لأنها تريد أن تجلو أمرا ما في ذهنها . أنها لم تكن تعرف كنهه على وجه التحديد ، ولكنها كانت تشعر بأنه من المتعين القيام بهذا قبل لقائها ثانية بكلير فايت . وعلمت بأن الطائرة ستغادر المطار بعد ساعتين .

وعادت إلى الفندق تعد حقائبها . وكان المفروض أن يكون كلير فايت قد وصل إلى باريس ، ولكنها لم ترغب في الاتصال به لتخبره بأنها ستتخلف عن الحضور . فلقد كانت تريد أن تكون في عزلة عمن تعرف ، وأن تنفرد بنفسها قبل أن يلتقيا ثانية : يلتقيان ثانية ؟ أنها لتشعر بنفس ما سبق أن شعرت به وهي تغادر مدرج السباق ، بتلك الرغبة العارمة في أن تنطلق كالطير بشون أقدام . يظل طائرا إلى أن يموت أعياء ! أن هذا هو السؤال الذي يتردد في ذهنها : أينبغي لها أن تهجر كلير فايت ، وتقطع كل صلة بينهما ، أم لا ؟

هبطت بها الطائرة في ساعة متأخرة من بعد ظهر اليوم . وأفردت لليليان غرفة بفندق دانييلي ، وحينما كانت تستقل المصعد في طريقها الى غرفتها ، أحاطها العامل علما بأن هذا الفندق شهد قصة غرام جورج صاند المتقدمة في السن بالشاب الفريد دي موسيه . وأنبرت ليليان تسأل الرجل : وماذا حدث ؟ ترى مع من خانها ؟

ـ لم يحدث شيء من هذا القبيل . أن السيدة صاند هي التي خانته مع طبيب ايطالي . لقد كان السيد موسيه شاعرا .

وتبينت ليليان وميض السخرية في عيني الرجل ، الذي استطرد قائلا :

ـ وهو يفتح باب المصعد لقد هجرته على غفلة منه . هجرت السيد موسيه فجأة .

وكان لحديث الرجل انطباعاته في نفس ليليان ، ونلفت في سكون الى غرفتها . واتجهت الى نافذتها تطل منها ، وتملأ عينيها بمنظر الفتاة الجميل ، وقد انعكست على مياهه أضواء ليل البندقية . وراحت تنعم النظر في كل ما يحيط بها من سحر . وكانت سعيدة لأنها في بلد لا يعرفها فيه أحد ، ولا يعرف أحد أنها حطت رحالها به .

● ● ●

كان اختلاج مشاعرها بهذا الخطر مضاعفا ، وهي تمشي على غير هدى في الميدان القريب من الفندق . وانتهت بها خطواتها أخيرا ، الى مطعم صغير ، تزين جدرانه لوحات القرن الثامن عشر . وأمرت باحضار بعض الطعام والشراب الجيد . وكانت سعيدة بكل ما

حولها ، وبوحدتها . وسألت الساقي :

ـ أين يمكن أن أمضي هذا المساء ؟

ـ هذا المساء ؟ هل تحبين المسرح ؟

ـ هل يمكن أن أجد لي مقعدا ؟

ـ أجل ، فيما أعتقد .

ـ كيف أصل الى المسرح ؟

ـ يمكنك أن تستقلي الجندول ، ويمكن أن تقطعي المسافة سيرا على الاقدام .

واستقلت ليليان الجندول . ووصلت في الوقت المناسب الى المسرح وكانت المسرحية من مسرحيات القرن الثامن عشر الهزلية . وكانت تتابع المسرحية ، على الرغم من عدم المامها بالكثير من اللغة الايطالية . وبدأت تشعر بما كان يستحوذ عليها من رضى وانقباض في روما . أهو نتيجة للوحدة ؟ أهو الشعور بالضياع ؟

وفاجأها احدى أزماتها الصدرية ، وحاولت أن تتغلب عليها دون جدوى . ورفعت منديلها الى فمها تتلقى به الدم المنبثق . ورأت أنه يتعين عليها أن تغادر مقعدها ، ولكنها لم تكن واثقة من استطاعتها ذلك . والتفتت الى السيدة الجالسة عن يسارها ، محاولة أن تسألها المعونة باللغة الايطالية . وأخيرا قالت لها السيدة بالانجليزية : «هل تشعرين بوعكة ؟» .

فأومأت ليليان ، برأسها ايجابا ، ومنديلها فوق شفتيها ، محاولة أن تفهمها باشارة من يدها أنها تريد مغادرة المسرح . ورجت السيدة الشقراء زميلها ، أن يخف لاصطحاب ليليان الى الخارج ـ الى الهواء الطلق ـ ظنا منها أن ليليان قد أسرفت في الشراب .

ونهض الرجل يعاون ليليان على مغادرة مقعدها .

فقالت له هامسة الى باب الخروج فقط » .

وعندما خرجا الى النور ، وقف الرجل يحملق فى ليليان ، التى وجدها شاحبة الوجه فى ثوبها الابيض ، وقد التقى الدم من بين اصابعها يتساقط على ثوبها . فقال لها وقد اسبدت الدهشة به :

— « ولكنك مريضة حقا . هل اصحبك الى أحد المستشفيات ؟ » .

— كلا . بل الى فندق دانييلى . سيارة ارجوك .

— سيدتى ، لايوجد بفينيسيا سيارات . لايوجد سوى الجندول . يجب ان تذهبى الى مستشفى .

— كلا . كلا . الى الفندق ارجوك ان تودعنى احد القوارب وتعود من حيث اتيت .

— فى وسع مارى أن تنتظر . انها لا تفهم كلمة من اللغة الايطالية ، علاوة على ان المسرحية مملة .

واسرع يستقل معها قارب الجندول الذى كان قد اقترب منهما ، قائلا : « سنصل الى الفندق بعد لحظة . ام هل تفضلين أن نستقل قاربا بخاريا ؟ » .

— كلا . فمن الخير لى الا اتحرك كثيرا ..

وكانت مستلقية فوق المقاعد الخلفية ، وراحت تتطلع الى المبانى القائمة على ضفاف القناة والى نوافذها المضيئة ، والى تلك الرقعة الصغيرة من السماء ، وهى تستمع الى لحن اسطنا لوتشيا» ينشده صاحب الصوت الجهير لفريق من السياح . وكان يختلط بكل هذا ، خرير المياه المتلاطمة بجدار الجندول . وتساءلت فيما بينها وبين نفسها : ترى هل هذا هو نهو الاجل ؟ هل حانت ساعتى ؟ .

وعاونها الرجل فى الخروج من الجندول . ثم مد اليها

ذراعه لتستند عليه الى بهو الفندق . وكانت قد عهدت للحارس عند تخطيها باب الفندق ، أن يأتيها بطبيب . ولم يكن جالسا بالبهو سوى جماعة من الامريكيين ، راحوا يحملقون النظر فيها . ورأت بينهم وجها مألوفا لديها ، وان كانت لم تستطع أن تتبين من عساه أن يكون . وقال لها ماريو ، وهو اسم الرجل الذى نادته به سيدة المسرح الشقراء وهما فى المصعد : « ارجوك ان تلزمى الهدوء ريثما يحضر الطبيب » .

● ● ●

ولم تغادر فراشها اسبوعا . وأمر الطبيب بضرورة فتح نوافذ غرفتها ليل نهار — فقد كان الطقس مائلا الى الدفء — واثرت الا تتصل بكلير قبل ان تتبين مرضها ، لانها لم تكن تريد أن يعلم انها مريضة ، كما لم تكن تريدان تراه جالسا الى جانب فراشها . ان مرضها شأن من شئونها الخاصة ، لا يجب أن يعنى غيرها . وكان الطبيب يعودها من آن لاخر ، وكذلك ماريو . وقد علمت من الطبيب ان النزيف لم يكن من النوع الحاد . أما ماريو ، فكان يحمل اليها باقات من الزهر ، ويجلس ليحدثها عن ظروف حياته القاسية التى تضطره لمعاشرة من هن اكبر منه سنا من النساء الثريات . وكاشفها بدخيلة نفسه قائلا : « ثمة تشابه بين حال كل منا . ان الموت هو رفيق ايامك التى تريتها تولى وتمضى . أما انا فرفيق هاته النسوة اللائى تمضى ايامهن شيخوخة يرتعدن منها فرقا » .

وكانت ليليان تصغى فى دهشة لما تسمع . فقالت :

ـ ، أن الموت رفيقنا جميعا غير أن غالبية الناس لا يدركون ذلك ·· ترى ماذا أعددت للمستقبل ؟ أتعتزم الزواج من احدى تسائك المتقدمات فى السن » .

ـ كلا . أننى ادخر بعض النقود للمستقبل ، لابد أن بها مشروعا · ربما كان مطعما صغيرا · ولى خطيبة فى بادوا تتقن اعداد شتى الوان الطعام · هل تؤمين يوما مطعمنا ؟

أرجو أن يتاح لى ذلك ·

● ● ●

كان هذا الوجه الذى رأته فى بهو الفندق ليلة مرضها . هو وجه الفيكونت دى بايستر . الذى تعرف عليها . وبدا يبعث اليها ببطاقات من الزهور مجهولة المصدر . وبعد أسبوع ارفق بطاقته . واستفسر منها بعد ان اتصلت به تليفونيا ، عن سبب وجودها بالفندق . فأجابته :

ـ لاننى أحب الاقامة بالفنادق · ترى هل تحب أن انتقل الى أحد المستشفيات ؟

ـ كلا ، بكل تأكيد · أن المستشفيات أعدت لاجراء الجراحات فقط . وأننى ابغض المستشفيات بقدر بغضك لها · ولكن منزلا تحيط به حديقة ، كمنزلك فى باريس ؟

ـ لن يكون من العسير الاهتداء الى مسكن من هذا القبيل ! ! ومهما يكن من أمر ، فلدى هنا منزل .. انه تحت أمرك ·

ـ انى لا أحب أن يكون لى منزل استقر به · هل تدعوننى الى تناول الطعام بالخارج ؟

ـ وهل فى امكانك مغادرة غرفتك ؟

ـ سأخاطر بذلك .

وهبطت الى بهو الفندق · أنها لترى أن نجاتها من الموت ، بمثابة مولد جديد لها ، وكانت تبتسم عند لقائها بدى بايستر ، الذى قال لها :

ـ لعلك مسرورة من مخالفتك لامر الطبيب .

ـ دعنا من هذا · أين ستذهب بى ؟

ـ الى التافرنا ·· فلنستقل هذا القارب ·

ومضى الجندول بهما ، ينساب فى هدوء يتسق مع ما كان يجول فى خاطرها · وقالت ليليان :

ـ أننى لم أعرف من فينيسيا سوى ماشاهدته فيها من نافذة غرفتى ، ومن الساعات القليلة فى أمسيتى الأولى بها ·

ـ أننى ازور فينيسيا طوال ثلاثين عاما .

ـ أين يا ترى توجد التافرنا ؟

ـ بالقرب من المسرح ·

ـ وهل بها شرفة ؟

ـ أجل · هل زرتها من قبل ؟

ـ شاهدتها عن كثب فقط ، دون أن اكون من العملاء ·

ـ أنها مطعم ممتاز ·

ـ أننى اشعر بالجوع فعلا .

وقام المدير شخصيا على خدمتهما . وحمل اليهما اجود الوان الطعام واصناف النبيذ · وبادرها دى بايستر بسؤاله :

ـ ، ما الذى اتى بك الى هنا ؟ » ·

احدى نزواتى . ولكننى سأقفل راجعة .

ـ الى باريس ؟

ـ الى باريس ·

ـ حيث يوجد كليرفايت ؟

ـ اذن فانت تعرف ذلك ؟ الى كلير فايت !

ـ الا يمكن ان تتخلى عنه لفترة ما ؟

فضحكت قائلة : « اراك شديد الالحاح . هل تتقدم الى بعرض ؟

ـ اذا وافقت . وهو عرض بدون شروط .

ـ أن هذه الصورة من عرضك هي في نظري تكرار لغيرها . أن حياتي لا تتسع للتكرار .

ـ الا تشعرين بانه ينقص حياتك ، المخاطرة ، أو المفاجأة ، أو اي شيء جديد عليك ؟

ـ كان هذا هو شعوري من قبل . غير انني لم اعد المس منه شيئا .

ـ منذ متى ؟

ـ منذ بضعة ايام .

ـ ولماذا ؟ وأين ؟

ـ في نافذة غرفتي بالفندق ، اجتاحني شعور جديد بن الحياة تواتر متتابعة . لا فرق في ذلك بين مدينة واخرى ولا بين رجل وآخر . لقد ادركت ان اوهامي كانت باطل الاباطيل .

ـ متى ستسافرين ؟ غدا ؟

ـ أجل .

ـ اسفي على ما مرت اليه .

ولكنه لم يذهب . . كان يشعر بانه قد غاض به. كما كان يشعر بانه لايفتقد ليليان فحسب، بل يفتقد شيئا في ذات نفسه . وتبادر الى ذهنه انه تأثر الى حد ما بمنهج تفكيرها في الحياة ، بدون ان يشعر . منهج الحياة بدون غد . ولكن هذا المنهج ليس بالتسليم . فثمة غد ، على الاقل بالنسبة له .

لقد تركتني مع الغضب ، وخلفت لي الشجن . لقد أعادتني عشرين عاما الى الوراء ، ولكنني اصبحت اكثر ترفا . لقد كنت احد في صحبتي لامراة من طراز ليديا متعة . اما الان فقد اصبحت اشعر بما يشعر به شارب النبيذ الرديء . ينبغي لي أن أتزوج من ليليان . هذا ما كانت تعنيه ليديا . وهي على حق في ذلك . أنه لم يعد يتخيل لنفسه حياة بدون ليليان .

واقلع عن مواصلة البحث عنها . فان هي عادت الى باريس ، فانما أن تسعى اليه ، وأما الا تحاول ذلك . ولم يطرأ على باله انها عادت فعلا الى فندق بيسون . وقد اقامت به عدة أيام ، الى ان تستعيد صحتها . وبعد أن استقر بها المقام ، وقضت فترة الاستجمام ، فكرت في الاتصال بعمها جاستون ، الذي دهش لمرآها قائلا :

ـ وأين تقيمين الان ؟

ـ لقد عدت الى فندق بيسون . انه لا يكلفني كثيرا .

ـ انك تعتقدين أن النقود تتكاثر بين عشية وضحاها . لئن انتهجت في حياتك اسلوبك الاول ، فلن يتبقى لك الكثير منها . ان الناس يجب ان يعولوا في حياتهم على ما يفعله رأس المال من فوائد فقط . في وسعي أن أفرد لك غرفة في مسكني .

وكانت تعرف انها مهما انفقت ، فلن تطول بها الحياة

شاسع بين الغيرة والشقاء .

ـ حقا ؟

ـ أجل . انني أعرف ، أما انت فلا . الا تدعوني نتناول طعام العشاء ؟

واصطحبها كلير فايت الى أحد المطاعم . وانتشاء المساء ، تجمعت مشاعره بالنسبة ليليان ، فيما يشعر به الرجل المطعون قبل ان يتمكن من توجيه الطعنة . ولمست ليديا الموضوع الحساس من مشاعره بقولها له اخيرا :

ـ ينبغي لك ان تفكر في الزواج .

ـ ممن ؟

ـ لست أدري . غير انني أرى أنه قد آن الأوان .

ـ منك ؟

ـ لا أريد لك هذا . ومع ذلك ، فلست بالرجل الكفؤ مالبا لي . ليكن زواجك من سيدة ثرية . ثمة الكثيرات من هذا الطراز . أنك لن تستطيع ان تعول في معاشك على السباق . لقد تجاوزت سن الشباب .

ـ هذا هو ما أدركه تمام الادراك .

ـ لا تتئس . هذا هو مصيرنا جميعا . وعلينا ان نعد انفسنا للمستقبل قبل فوات الاوان .

ـ هل انتهيت الى الرأي بمن أتزوج ؟

ـ سنبحث الامر فيما بعد .

ـ ليديا ، لقد تعارفنا منذ اربع سنوات . وكانت هذه المعرفة على اساس ان اياهما لا يريد تحمل أية مسئولية !

ـ ولقد وجدنا ان هذا يناسب كلينا . أليس كذلك يا كلير فايت ؟ سأكون في انتظارك الليلة .

● ● ●

الفصل الرابع عشر

بحث كلير فايت في باريس طويلا ، الى ان انتهى به بحثه الى الرأي بأنها عادت ادراجها الى المصحة . واتصل تليفونيا بالمصحة تبين انه كان مخطئا في رأيه . ثم عاد ليواصل بحثه عبثا ، وانتهى به الامر الى انها قد تعمدت هجرانه . وكان من بين من لجأ اليهم في بحثه العم جاستون الذي كان يجهل عنها كل شيء . وحاول كلير فايت ان يبعدها عن ذاكرته وينسى أمرها ، ولكن محاولته هذه كانت اشبه بمن يحاول السير على الماء .

وبعد اسبوع من عودته . التقى مصادفة بليديا موريللي التي سألته : ، هل تخلى عنك عصفورك ؟ » .

ـ لم يسبق لك ان وجهت الي سؤالا عن غيرها من النساء . لابد وانها كانت غصة في حلقك .

ـ هل هجرتك ؟

ـ هجرتني ! يالله من تعبير سخيف !

ـ اذن ، فقد وقعت في شباك الحب أخيرا ؟

ـ هل تشعرين بالغيرة ؟

ـ انني اشعر بالغيرة ، ولكنك لست سعيدا . وثمة فرق

حتى بتعب معين تقودها . ورفعت عينيها الى عمها تسأله :

ـ كم بلغت من عمرك ؟

ـ أو عودة الى مثل هذا السؤال ؟ انه سؤال لا يجب أن يوجه لكبار السن . ان الأعمار بيد الله .

ـ أن بيده مصير كل شيء . وهو وحده القادر على الاجابة على أسئلة الكثيرين . وبودي لو استطعت الى ذلك سبيلا .

ـ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟

ـ لا شيء .

وآثرت ليليان ان تطبق شفتيها . أن هذا الرجل الطاعن في السن ، والذي تجاوز الثمانين يأمل في أن يمتد به العمر الى أكثر مما تبقى لها من أعوام . لقد أتاح له طول العمر أن يعرف عن الحياة أكثر مما تعرف ، وان يكون أكثر صلة بربه ، عن طريق المعرفة والادراك .

ووجدت انها توجه اليه هذا السؤال :

ـ عماه ! اذا ما قدر لك ان تبدأ حياتك من جديد ، فهل تنتهج فيها أسلوبا مختلفا ؟

ـ بكل تأكيد !

ـ أي سبيل كنت تسلك ؟

ـ ما كنت لأتعرض لنتائج التضخم ، ولكنت اشتريت من السندات الامريكية ..

فقاطعته بحركة من يدها ، قائلة في ضجر :

ـ كفاني هذا الايضاح .

●●●

وخرجت تمشي في الطريق المبتلة . فقد أمطرت السماء

بينما كانت في زيارة عمها . ثم عادت الشمس لتنفذ بأشعتها من بين السحب المتناثرة كقطع من القطن المندوف . وتأملت السماء ، وعادت بخاطرها الى ما كان بينها وبين عمها من حديث . انها ترى يد الله في كل ما حولها من مظاهر الحياة . آه لو عرف الناس ذلك ، بدلا من أن يدفنوا رؤوسهم في الرمال كالنعام . لقد ألهت الحياة الناس عن التفكير في مصيرهم المحتوم ، وفي الحياة الابدية وما عرفوا في حياتهم الا ان يعبدوا المال والقوة . أما في الصحة ، فقد كان الامر مختلفا . أن كل من كان بها عن النزلاء ، يتجاهلون هذا المصير ، الذي كان ماثلا أمامهم مثول الشمس في كبد السماء .

ووصلت الى الفندق . وكانت غرفتها بالطابق الاول أسوة بالسابقة . وارتقت الدرج على مهل . وفي غرفتها جلست بجوار النافذة ، وأسندت رأسها الى زجاجها وكانت زجاجة النبيذ الى جانبها فوق المنضدة . واسترخت في هدوء ، وخلت ما بينها وبين التفكير فيما يعكر عليها صفو وحدتها ، في هذه اللحظات الهانئة المختلسة من لحظات الحياة الصاخبة . وهكذا حدث أن رآها كلير فايت ، وهو فاقد الامل في لقائها ، حينما عن له أن يمر بفندق بيسون مرة أخرى . وصعد الدرج ، وركض الى غرفتها يدفع الباب قائلا :

ـ ليليان ! بربك أين كنت ؟

وكانت قد رأته يعبر الطريق ، فلم تدهش لقدومه . وأجابته قائلة : « في فينيسيا » .

ـ ولماذا ؟

ـ لقد حدثت حينما كنا في صقلية برغبتي هذه . وقد عادت الفكرة فاختمرت في ذهني حينما كنت في روما .

واغلق الباب قائلا :« لماذا لم تتصلى بي تليفونيا ؟ هل أقمت هناك كثيرا ؟ ؟

ـ هل هو استجواب ؟

ـ لقد بحثت عنك في كل مكان . مع من كنت ؟ لقد افتقدتك كثيرا ؛ لقد دار بخلدي شتى الفكر والتكهنات .

ـ هل لك في كأس من النبيذ ؟

ـ ابتعدي عن النافذة ، حتى يتيسر لي أن أضمك بين ذراعي .

ـ هل أتيت مستقلا سيارتك ؟

ـ كلا . لقد تركتها بميدان فاندوم .

ـ هيا ، فلنسرع بالعودة بها . اريد أن اقوم بجولة في غابة بولونيا .

ـ هيا معا ، خشية أن اعود فلا أجدك في انتظاري ، وأعود لافتقدك ثانية .

ـ هل افتقدتني حقا ؟

ـ من حين لآخر . مع من كنت في فينيسيا ؟

ـ كنت بمفردي .

ـ لماذا لم تتصلي بي ؟

ـ ليس من دأبنا أن نفعل ذلك . هل ستذهب الى شاطىء البحر ثانية ؟

ـ أجل ، الى مونت كارلو ، حيث يجري سباق في الصيف .

ـ الا يمكن أن تذهب قبل ذلك ؟

ـ متى شئت ، اليوم ؟ غدا ؟

ـ كلا ، فيما بعد أن اقامتي لم تطل بفينيسيا .

ـ ولماذا ؟

ـ أصبت بنزلة برد .

وبدا أنه لم يصدقها ، واخذها بين ذراعيه قائلا :

ـ متى ستوحلين عني ثانية ؟

ـ هيا بنا الى حيث توجد سيارتك .

واحتضنها كلير فايت ، يشبعها قبلا .

الفصل الخامس عشر

قالت ليليان ضاحكة : « أو قل انك تريد سجني ».
ولم يضحك كثير غايت ، بل قال لها جادا :
« لست أريد سجنك . انني أريد الزواج منك . »
ـ ولماذا ؟
ـ لكي لا تعودين الى الاختفاء دون أن أجد لك أثرا » .
ـ أو تؤمن بأن الزواج هو خير ضمان لذلك ؟
ـ هو خير رباط لاثنين . ثم انك لاتملكين الكثير ، ولا تريدين أن تسليني .
ـ وهل لديك مزيد ؟
ـ سيكون لدى نصيبي من سباقين مقبلين . وما زال لدى الكثير .
ـ فلنرجىء عرضك الى السنة القادمة .
ـ وفيم الانتظار ؟
ـ لنرى أنه عرض غير ذي موضوع . ثم انك لا قبل لك بنفقاتي . لقد قلت ان عقدك سينتهي هذه السنة .
ـ لقد عرضوا علي توكيلا لسيارات السباق .
ـ هذا ما لا أستطيع تخيله .

ـ ولا أنا . ولكنني أقوم أحيانا بأشياء لم تكن لتطرأ لي على بال . ومن هذا ، رغبتي في الزواج منك .
ـ لماذا تتعجل الامور ؟ كرغبتك الملحة في الزواج وأن تصبح تاجر سيارات ؟
ـ كأنك ترين في مشروعي كارثة محققة .
ـ وأين تزمع افتتاح متجرك ؟
ـ في تولوز .
ـ متى سيكون ذلك على وجه التحديد ؟
ـ بعد بضعة أشهر .. في الشتاء ، على الأكثر في نهاية العام . انني لم أعد في سن تصلح لمزاولة مهنة السباق . وأرى أنه لابد لي من الاستقرار .
لماذا يصر هؤلاء الرجال على تغيير حياتهم ؟
لماذا يصرون على الالقاء جانبا بالشيء الوحيد الذي كان له أثره في نفس من يتعلقن بحبهم ؟
انني لم أحب كثير غايت هذا ، الا لأنه كان على شاكلتي لا مستقبل له . وأخيرا انبرت تقول :
ـ لطالما تردد في ذهني ، التساؤل عما اذا كان ينبغي لمثلنا الاقدام على الزواج . ولم أجد من الاسباب ما اقتنع به . وهذا طبعا بعد استعراض وضعي وحالتي .
ـ ليليان ، لماذا تصرين دائما على هذا النمط من التفكير ؟ لماذا تحرصين على عدم الارتباط بي ؟
ـ الا تدرك السبب ؟ لقد كان لقاؤنا صدفة ـ لماذا لاندع الامور تسير بيننا في هذا الاطار ؟
ـ انني أريد أن أربط حياتي بحياتك . ان الامر في غاية البساطة ، أليس كذلك ؟
ـ كلا . انه ليس بهذه البساطة .
ـ فلتقل انني أريد أن ..

ـ أن تستقر في حياتك ؟
ـ وهل في ذلك ضير ؟ كما انني أرى أن الزواج منك من دعائم هذا الاستقرار . هل في هذا ما يضحك ؟
ـ بل ان فيه ما يبكي .
وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع . فنهض يأخذ يديها بين يديه قائلا :
ـ أليس كذلك ؟ أن هذا لا يجب أن يحدث بيننا .
ـ دع الامر بيننا على ما هو عليه .. لا تفسد الامور .
ـ هل ترين ذلك ؟
ورددت فيما بينها وبين نفسها قولها :
ـ أجل . أنك ستفسد كل شيء . انك لن تستطيع أن تبني سعادتك المنزلية في تولوز فوق أجنحة فراش رقيقة هشة . ما أشد ما تعمى الانانية الناس ! كيف لايتسنى له أن يتبين وجهة نظري ؟
ولم تجد بدا من أن تقول له :
ـ كلير فايت ! أو نسيت انني مريضة ؟
ـ ان هذا من اقوى الدواعي المؤيدة لمرضي .
وآثرت الا تعقب بشيء . فبادرت تسأله :
ـ متى ستذهب الى الريفييرا ؟
ـ عندما تشائين .
ـ فلنعجل بهذا .
ـ أن لي منزلا بالريفييرا .
ـ حينما نعود الى فندقك ، ابعث الى بحقائبي التي سبق أن تركتها به قبل سفري .
ـ سآتيك بها .
وجلست الى منضدة زينتها ، تتامل صورتها في المراة ، وتستعيد ما كان بينها وبين كلير فايت من

حديث . يا لتلك الرغبة في التملك التي تستبد بالرجال؛ الزواج منها ، والاستقرار في تولوز !
وبدأت تضحك .. انها لم تكن تريد أن تتحدث عن مرضها أن تذكره به . أن كلير فايت قد أصبح في نظرها رجلا آخر .. انه لم يعد يعيش في دنيا من الضياع . لقد أصبح رجلا له مستقبل . ثم بدأت تبكي في هدوء المستسلم .

●●●

وعاد كلير فايت يحقائبها قائلا :
ـ كيف استطعت أن تسافري بدونها ؟
ـ لقد ابتعت غيرها . أين نذهب هذا المساء ؟ الى الغابة ثانية ؟
ـ على أن نرتدي معاطفنا .
ـ متى سترحل ثانية ؟
ـ وأنى لك هذه المعلومات ؟ هل تتابعين تسوقيت السباق . ومهما يكن من أمر ، فلن يرحل أحدنا دون الاخر .
ـ لن يكون هذا قبل نهاية العام !
ـ يمكن أن يتم الزواج بيننا قبل هذا .
ـ دعنا أولا نحتفل بلقائنا ثانية . الى أين يتعين عليك السفر ؟
ـ الى روما . ومن بعد الى سباق الالف ميل عبر ايطاليا . لقد تحدد له الاسبوع القادم . ما أظنك تستطيعين مصاحبتي .
ـ هل ستفوز بهذا السباق ؟
ـ انه سباق الايطاليين . ولم يشذ عن هذا سوى كاراكيولا بسيارته المرسيدس . أننا ندخل هذا السباق

كفريق من الدرجة الثالثة . فقد يحدث ما ليس في الحسبان . هل أبقي ريثما ترتدين ثيابك ؟

ـ أي ثوب تفضل ؟

ـ أن كل ثيابك تزيدك جمالا وسحرا . أن طيفك لم يبرح مخيلتي طوال غيابك عني . لقد انطبعت صورتك في وجداني وفي ذهني ، بحيث لم تترك مجالا لغيرها . لقد قضيت الليالي الطوال منطويا على نفسي عازفا عن اللهو والمسرات .

ـ هل لديك مزيد من النبيذ ؟

وقدم اليها كلير قايت كأسا ، مشفوعا بقبلة منه ، وطوقت عنقه بذراعها قائلة :

ـ أن الحياة عصير أوله حلو وآخره مر . ومهما فعلنا فلن نستطيع حيال هذا شيئا .

ـ كيف اتيحت لك كل هذه المعرفة ؟

ـ اني اردد كل ما يجول في خاطري ـ هذا كل ما في الامر .

ـ وماذا تعرفين عن الحب ؟

ـ لا شيء . لا شيء أكثر من عرض من عوارض الحياة .

ـ كلا . لقد جانبك التوفيق في حكمك هذا . ان الحب هو الحقيقة الكبرى التي تنسينا أنفسنا ، وتنسينا الكثير من حقائق الحياة المفجعة .. انه ينسينا الموت .

وضحكت ليليان وهي ترتدي ثوبها . واستطرد كلير قايت قائلا : «أتعرفين ماذا أريد بعد أن التقيت بك؟ أريد أن أعيش حياتي مضاعفة » .

وكانا يقفان بجوار النافذة . فانبرت تقول له :

ـ أما أنا ، فأريد لنفسي حياة مزاجها يوم من سن

الخمسين ، وآخر من سن الثلاثين ، وثالث من سن الثمانين ، كما أبغي وأريد ـ لا أن تكون أياما متلاحقة على مر الزمن ، كما أرادها لنا الزمن وفرضها على البشر .

وضغطت كلير قايت قائلا ، « لا أكاد أن أدرك شيئا مما تقولين أحيانا . هيا بنا » .

وهبطا درج الفندق . وراودت ليليان في ذهنها ما قاله لها .. انه لا يفهمني . أنه لا يدرك أنني أريد أن اعيش من المستقبل أياما أعرف انه لن يقدر لي العيش فيها ، وأن الحياة لن تمتد بي لاصبح امرأة في الثلاثين .

●●●

وعادا أدراجهما الى الفندق بعد ساعتين . وقال لها عند باب الفندق ، « أنت بحاجة ماسة الى النوم » .

ـ النوم ؟

ـ الى الراحة . لقد قلت لي أنك كنت مريضة .

ـ وهل ترانى متعبة ؟

ـ كلا . ولكنني أفضل لك الراحة اليوم . اخلدي الى النوم ، وان كان يعز على أن أحرم صحبتك لبضع ساعات .

ـ طابت ليلتك .

وتبين من تحيتها انها غير مقتنعة بما قال . فترك سيارته ولحق بها قائلا ، « سأصحبك الى غرفتك » .

ـ كلا . خير لك أن تخلد الى الراحة استعدادا للسباق .

فحملق كلير قايت فيها دهشا . وخلى ما بينه وبين ذراعها . وعادت تحييه تحية المساء ، وواصلت طريقها

ترنقى الدرج ووقف يتابعها بعينيه من حيث هو الى ان اختفت عن ناظريه . ثم مضى فى طريقه الى مطعم بيريجوردين، حيث وقف يشاهد فى انخارج عملاءه وهم ينصرفون . وآثر ان يقوم بجوله يفرغ فيها لخواطره والتفكير مليا فى كل ما سمعه منها الليلة .

وكانت نوافذ غرفة ليليان مضاءة ، وان كانت ستائرها مسدلة . واستطاع كلير فايت ان يرى من مكانه حيث قادته قدماه، ظل ليليان يتحرك فى الغرفة جيئة وذهابا. وكان يشعر بأنه ضايقها بمسلكه الذى كان لابد له منه . انه كان يستهدف راحتها، ويعنى ماقاله لها فعلا . لقد كانت ليليان متعبة فعلا وقد اكتسى وجهها بامارات الارهاق والذبول .. ترى ماذا تفعل الآن ، وكيف سيكون تصرفها ؟ وتبادر الى ذهنه انها يجب ان تعلم بأمر وجوده وعودته . فأسرع يعبر الطريق ، ليعود بسيارته ، التى عهد الا ان يسمعها صوت محركها ، ثم انطلق بها الى ميدان الكورنكورد .

سمعت ليليان صوت محرك سيارة كليرفايت وهى تبتعد . فنهضت ترتدى معطفا واقيا من المطر . لانها لم تشعر برغبة فى استبدال ثوب السهرة الذى كانت لم تخلعه بعد . لقد كانت أبعد ما تكون عن الرغبة فى ان تأوى الى فراشها .. حسبها ما نالته من راحة فى المصحة .

وهبطت الدرج على مهل . ثم خرجت الى الطريق بخطوات مقتدة . وسارت بها قدماها الى طريق سانت ميشيل دون أن تلتفى بأحد . وما ان صارت فى هذا الشارع حتى تقدم منها الكثيرون يعرضون عليها صحبتهم . ورأت ان تتخذ لها مقعدا فى أحد المقاهى

الخارجية . وكانت محط أنظار الرائحات والغاديات من نساء الارصفة المحترفات . وراحت تتطلع فيما حولها ، تمعن النظر فى الناس هذا العالم الذى له طابعه الخاص، والذى لقل ما يخل فيه ، انه عالم المجون واللهو الرخيص .

●●●

بعد أن جلس كلير فايت بحانة الفندق لفترة ما ، رأى ان يتصل بليليان تليفونيا . وأجابه الحارس الليلى بأنها غير موجودة ، وأنها غادرت الفندق منذ نصف ساعة .

ـ وهل حملت معها شيئا من حقائبها ؟

ـ كلا . ياسيدى. لقد انصرفت مرتدية معطفا واقيا من المطر .

ـ حسنا . وشكرا .

معطف واق من المطر . ترى ماذا تعتزم؟ او تعتزم العودة الى المصحة والى صديقها بوريس فولكوف ؟

واسرع الى سيارته يستقلها . كان على ألا اتركها . ترى ماذا دهانى ؟ ماذا فعل الحب بى .. ؟ أو يفقد الرجل اتزانه حينما يتدله فى الحب . لقد وضعت صحتها نصب عينى . فهل ساءها منى هذا ؟

واستفسر من الحارس الليلى عن الطريق الذى اتجهت فيه . وعلم منه انها خرجت سيرا على الاقدام فى عكس اتجاه نهر السين . وقاد كلير فايت سيارته على مهل بطول طريق سانت ميشيل . وسمعت ليليان صوت محرك سيارته عن بعد ، ثم شاهدت السيارة مقبلة . وبعد أن وصلت السيارة الى الطرف الاخر من الطريق ، عادت ادراجها . وشاهدت كليرفايت يمعن النظر فى المارة بحث

عنها . وبعد قليل توقف بسيارته ، وتركها ليواصل بحثه سيرا على الاقدام . واقبل بخطوحتيتا، وسمعت صوته من الخلف يأمر الساقي بكأسين من البيرنو . وقال وهو يتخذ له مقعدا بجوارها :

ـ انها جلسة ممتعة . لماذا لم نكن نتردد على هذا المقهى ؟

ـ يسرني قدومك . لم استطع أن آوى الى فراشي . ولو كنت أخلدت الى النوم ، لما شاهدت اليوم مما كان جديدا على في كل شيء . انه عالم متناقض من الاضواء ومن الظلام .

ـ ولكنك تحملين نفسك أكثر من طاقتها .

ـ لم يأن الاوان بعد لتطبيق قواعد الحكمة .

ـ أرجو ألا تغضبي مني . انني أضع صحتك فوق كل اعتبار .

وأخذ بيدها يطبع قبلة عليها .

الفصل السادس عشر

بعد أن فرغت ليليان من انتقاء ما راق لها من ثياب سألت القائمة على شئون البيع بمتجر أزياء بالتشيلجا :

ـ ومتى يمكنني استلامها ؟

ـ بعد أسبوعين . وسنبذل العمل فورا باذلين اقصى ما في وسعنا .

وخرجت الى طريق جورج الخامس . وراحت تستعرض في ذهنها الكثير من أحداث حياتها . وابتسمت ابتسامة الرضا ، عندما بلغ بها التفكير الى اقدامها على مغادرة المصحة واقبالها على الحياة تغترف منها ما كانت تصبو اليه ، وتعوض منها ما فاتها . أنها لم تشأ أن تترك للقدر أن يفاجئها بمصيرها ، بل سبقته واختلست منه أيامها التي تعيشها الان .

ووجدت نفسها وجها لوجه أمام الفيكونت دي بايستر ، عندما استدار الى الشانزليزيه . وفوجيء دي بايستر بهذا اللقاء غير المتوقع ، وقال لها :

« أراك سعيدة . هل هي حالة حب جديد ؟

ـ أجل . حب لثوب جديد .

ـ انه حب سئيم خال من الاحزان والقلق .

ـ وهل يمكن ان يستكمل الحب كيانه ، بدون هذه العناصر ؟ ما أظنه الا فاقدا خصائصه ؟

ـ هل تقبلين دعوتي الى كأس من الكوكتيل بهذه الشرفة ؟

ـ حسبي قدحا من القهوة .

وجلسا الى مائدة بشرفة مطعم فوكيه ، وسألها دي بايستر : « هل لازلت تقيمين بهذا الفندق الصغير على ضفاف السين ؟

ـ أجل . وان كنت لا أدري أحيانا أين أقيم .

ـ ان ذلك أحيانا أسلوبا من التفكير .

ـ انها أحلام اليقظة كما يقولون .

اقبل الساقي بكأس من الشيري لدي بايستر ، وبقدح من القهوة لليليان . وسألها دي بايستر :

ـ هل لك في شيء تأكلينه ؟

ـ كلا . كم الساعة الآن ؟

ـ حوالي الخامسة .

ثم التفتت ليليان الى كبير السقاة تسأله :

ـ مسيو لامبرت ، ألم تسمع بعد شيئا عن السباق .. ؟

ـ سمعت اذاعة روما . سيبدأ السباق بعد بضع دقائق . كلير فايت يتولى قيادة السيارة ، ويساعده في ذلك توريالي . هل تحبين الاستماع الى الاذاعة . لقد أحضرت معي جهازا صغيرا .

ـ كم اتوق لمتابعة اذاعة السباق .

وسألها دي بايستر : « هل لكير فايت في روما ؟ »

ـ كلا . في بريسكيا .

ـ لا اهتم لي بشيء عن السباق ، هل هو سباق خطير ؟

ـ انه سباق الالف ميل .

وعاد كبير السقاة بجهازه قائلا ، « لقد بدأ السباق فعلا . انه سباق بالغ الاهمية » .

ومن محطة اذاعة ميلانو ، بدأ المذياع يعلن تحرك السيارات من نقطة البداية ، ويصف ازدحام الجماهير التي اقبلت من كل حدب وصوب لمشاهدة هذا السباق الكبير ، وانبرى دي بايستر يستفسر :

ـ ما هو عدد السيارات المشتركة في السباق ؟

ـ حوالي الخمسمائة .

ـ يا الهي ! وما هي المسافة ؟

ـ الف ميل ، تقطعها السيارة في المتوسط من خمس عشرة الى ست عشرة ساعة . وجدير بالذكر ان الاخطار تتكاثف في ايطاليا .

وانتهت الاذاعة ، وعاد رئيس السقاة بجهازه ، واضطجعت ليليان في مقعدها ، وأغمضت عينيها واستغرقت في متابعة صور خيالها . وبعد برهة وجيزة ، انبرت تقول :

ـ ان السماء تمطر في بريسكيا . أين يا ترى تقع هذه المدينة ؟

ـ بين ميلانو وفيرونا . هل تقبلين دعوتي لتناول طعام العشاء الليلة ؟

كانت العاصفة تشتد وتقسو . وكان كبير غنيت جالسا الى عجلة القيادة والى جانبه توريالي . وكان كلير فايت يدرك انه ليس لديه فرصة للفوز ، وانه لم يفقد الامل في مثل هذا السباق الكبير الذي لايخلو من المفاجآت . وكان لا يفتأ يفكر في ليليان وفي مسلكها معه . ولم يكن واثقا

لمن انها لم تزل فى باريس . وسأل توريانى ،

— هل بعثت بالبرقية الى ليليان ؟

— أجل باق من الزمن دقيقتان .

وتحرك كليرفايت بالسيارة الى خط القيام . وحاول ان يبعد عن مخيلته صورة ليليان وان يركز انتباهه فى الرجل الذى سيصدر الامر بالانطلاق ولكن دون جدوى .

وأعلن المذيع عقب اعطاء الاشارة ، وقال : « لقد تحرك كلير فايت بسيارته ، والى جانبه توريانى » .

●●●

عادت ليليان ادراجها الى الفندق . واحست باغراض الحمى ، ولكنها تجاهلت امرها . وراحت تتامل صورتها فى المرآة . ولم يسعها الا ان تبتسم . واستدارت لتجد برقيتين فوق المنضدة . ترى ماذا حدث ؟ وتريثت قليلا قبل أن تفض احديهما وكانت هذه البرقية من كليرفايت :

« سنبدأ السباق بعد خمس عشرة دقيقة . أرجو أن أجدك حيث تركتك » .

ووضعت البرقية جانبا . ثم انتشت تفض الثانية . وكانت هى الاخرى من كليرفايت . ترى لماذا يفعل ذلك الا يعرف أن كثرة البرقيات فى مثل هذه الظروف بالذات من دواعى الاثارة والانفعال ؟

وراحت تشغل نفسها بانتقاء ثوب السهرة . وسمعت طرقا على باب غرفتها وأقبل الحارس يقول :

— البك جهاز الراديو . يمكنك بواسطته الاستماع الى اذاعة ميلانو وروما بكل سهولة وهذه برقية ثالثة .

وفضت البرقية الثالثة وهى فى عجب من امر

كليرفايت . ولكنها لم تكن من كليرفايت . لقد كانت من هولمان الذى بعث بخير تمنياته لكليرفايت . وتساءلت فيما بينها وبين نفسها ، كيف تأتى لهولمان أن يعرف عنوان اقامتها .

انه ليوم المفاجآت . هذه البرقية هى أول كلمة تصلها من الصحة بعد مغادرتها لها . انها لم تكتب لاحد من زملائها القدامى ، فقد كانت تريد أن تقطع كل صلة لها بهذه المرحلة من حياتها .

وجلست برهة طويلة مستغرقة فى التفكير . ثم ادارت جهاز الراديو لتستمع الى ما يذاع من أنباء ، وكانت اذاعة روما تعلن مراحل السباق والقرى ، مع بيان تفصيلى بالساعات والدقائق التى تقطعها السيارات .

وتملكت منها شتى الفكر ومختلف المشاعر . وحاولت ان تدرك السر فى هذا السباق مع الموت ، وذلك الاهتمام الجماهيرى بمثل هذه الظاهرة . انها تحاول بكل جهد متابعة الانباء ، مع أن لها فيها ناحية تستحوذ على اهتمامها . ومع ذلك فقد وجدت نفسها توقف الجهاز ، وتتجه الى النافذة ، تطل منها وتسترسل مع خواطرها .

وعادت تروح وتغدو فى غرفتها . لقد كانت قلقة لا يستقر لها قرار . فقد كانت تشعر فى قرارة نفسها ، انها ارتكبت خطأ لم يكن فى وسعها تجنبه وأصبح من المتعذر عليها العدول عنه .

وبدأت ترتدى ثيابها استعدادا للسهرة . وكانت البرقية لم تزل فى مكانها من المنضدة وعجبت من أمر نفسها وهى تختلس النظر اليها ، وتعود بها الذاكرة لاول مرة الى هذه البقعة بين الجبال . ترى ماذا يفعلون فى المصحة ، فى هذا الوقت بالذات ، بينما كليرفايت

يسابق بسيارته الزمن .. والموت .

وترددت قليلا ، قبل أن ترفع سماعة التليفون لتتصل بالمصحة .

●●●

صاح توريانى ، «سيبنا . عليك بتغيير الاطارات فورا » .

وعقب كلير فايت قائلا ، «يا لهذا الطقس الممطر اللعين ! »

وكان الناس يقفون فى كل مكان غير عابئين بهذا الجو العاصف . واندفع كلير فايت بسيارته لايلوى على شىء . وتوقف فجأة بسيارته على حافة حفرة كاد أن يتردى فيها . ومد له احدهم يده بكوب من عصير الليمون ، فسأله :

ـ ما هو مركزنا ؟

ـ الثامن عشر .

ـ مركز ردىء .

ـ ومن هو الاول ؟

ـ ماركيتى .

ـ ما هى المسافة بيننا وبينه ؟

ـ مسيرة تسع عشرة دقيقة . لا تقلق .. العبرة بالوصول الى خط النهاية .

وسمع كلير فايت صوت المدير يبتهل ويصلى كما هى عادته . فقال له :

« ماذا أتى بك الى هنا ، ان مكانك فى بريسكيا ؟ » .

ـ جئت مستقلا احدى الطائرات الخاصة .

ولم تسمع البقية الباقية من كلماته ، التى لم يترك لها هدير المحرك مكانا . واندفعت السيارة تخترق الصفوف . ومضت فى طريقها قدما ، غير عابئة بتهليل الجماهير ولا بهتافاتهم .

الفصل السابع عشر

تم الاتصال التليفونى ، باسرع مما كانت تتوقع ليليان ٠ « مصحة بيللا فيستا » ٠

ورجحت ليليان أن الصوت ، صوت مستر هيجار ، فقالت وهى تكاد أن تسمع دقات قلبها ، « مستر هولمان ، من فضلك ٠

« لحظة واحدة لو سمحت »

وانتظرت على أحر من الجمر ٠ وكان واضحا انهم يبحثون عن هولمان ٠ واخيرا تناقلت الاسلاك الحديث التليفونى ٠

ـ هولمان ٠ من المتحدث ؟

ـ ليليان ٠

ـ من ؟

ـ ليليان دنكرك ٠

ـ ليليان ! اين انت ؟

ـ فى باريس ٠ لقد تسلمت برقيتك الى كلير فايت ٠ لقد بعثت بها الى فندقه ٠

ـ انت فى بريسكيا ؟

ـ كلا ٠

ـ وهل كان عدم ذهابك بناء على رغبة كلير فايت ؟

ـ أجل ٠ هذه هى رغبته ٠

ـ انني أتابع انباء السباق فى الراديو ٠ أظن أن هذا هو شأنك ؟

ـ اجل ٠

ـ انه يتقدم بصورة مذهلة ٠ أننى خير من يعرفه ٠ انه يترقب الفرصة المناسبة ليقفز الى المقدمة ٠٠ انه لن يفعل ذلك قبل منتصف الليل ٠ انه سباق مع الزمن هل تفهمين ؟

ـ اجل ٠٠ سباق مع الزمن ٠ كيف حالك ؟

ـ بخير ٠ ان السرعة تبلغ ٥ ٧ ميلا فى الساعة ٠

ـ أجل ٠ اجل ٠ هل تشعرين بتحسن ؟

ـ بتحسن كثير ٠ ليليان ٠٠ استمعى الى محطة روما ٠

ـ وهذا ما أفعله ٠ يسرنى ان اسمع منك عن تحسن صحتك ٠ أننى سعيدة بهذا ٠

ـ وكيف حالك أنت ؟

ـ بخير ٠٠

ـ لقد احسنت صنعا بعدم ذهابك الى بريسكيا ٠ ان الطقس مكفهر مشحون بالامطار ٠

ـ كيف تسير الامور عندكم ؟

ـ فى طريقها المعتاد ٠ لم يطرأ عليها تغيير يذكر ٠

ـ كيف حال بوريس ؟

ـ من ؟

ـ بوريس فولكوف ٠

ـ اننا لا نراه كثيرا ٠ لم يعد يحضر الى المصحة ٠

أظن انه بخير .

ـ ألم تلتق به مطلقا ؟

ـ بلى ، التقيت به منذ اسبوعين تقريبا . وكان معه كلبه البوليسي الذي تعرفينه جيدا . ولم نتبادل حديثا ما . كيف وجدت عالمك ؟ أو كان كما تخيلته ؟

ـ أكثر مما خيل الي . واعتقد أن الامر يتوقف على أسلوب حياتك فيه .

ـ ليليان ، لقد أمر بي كبير الاطباء بمغادرة المصحة بعد بضعة أسابيع .

ولم تصدق ليليان ما سمعته منه ، فطالما وعدت بذلك . ولكنها أجابته قائلة :

ـ رائع . اذن فقد قدر لنا أن نلتقي . هل أبلغ كلير فابت بالنبأ السار ؟

ـ من الخير الا تفعلي هذا . ان المذيع يعلن آخر انباء السباق ، وأعتقد انك تحبين الاستماع اليها . الى لقاء قريب .

ـ الى اللقاء .

وكانت تود لو أضافت الى حديثها شيئا عن بوريس . ولكنها لم تفعل شيئا من هذا القبيل ، وأعادت سماعة التليفون الى مكانها ، ثم وقفت مستغرقة في تأملاتها ، الى أن وجدت نفسها تنخرط في البكاء .

●●●

استرسل الفيكونت دي بايستر في حديثه قائلا :

ـ لقد أصبح لكلمة السعادة أهمية خاصة في عصرنا هذا . لقد أصبحت عزيزة المنال منذ قرون . والناس يجدون في طلبها الى أن افتقدهم هذا لذة الشعور بها .

ـ وهل انت من الباحثين عن السعادة ؟

ـ ومن المعجبين بها ؟ بل من الحالمين بها . ثم لاتنسي بأن في شقاء الاخرين أحيانا سعادة . البعض أن السعادة كنز يضحى في سبيل العثور عليه بكل عزيز ؛ وانها لتكون أحيانا على مقربة منا ولا نحس بها .. ونتركها تفلت من بين أيدينا .

ترى ، هل نعيد الى هذا الحديث لنتخذ منه منفذا الى ما نريد أن تعرضه علي . !

أن أصبح عشيقتك ؟

ـ اطلقي عليه ماشئت من أسماء . انه العرض الذي يهيء لك ما أنت بحاجة اليه من اطار . وفي معنى آخر انه الاطار الذي يناسبك .

ـ كهذا الاطار الذي تثبت به وتحيط حجرا .

ـ حجر كريم ثمين .

ـ حجر الياس القاتل ؟

ـ حجر من الوحدة ، والعزلة النفسية ، ومن الشجاعة ، والاقدام المستهتر .. سيدتي ، أرجو أن تغفري لي الحاحي . ان ماسة لها مثل هذا البريق انما تعد من الاحجار الكريمة النادرة الوجود .. هل تحبين الاستماع الى آخر انباء سباق ايطاليا .

ـ هنا ؟ وفي مكسيم ؟

ـ ولم لا ؟ ان البرت ، سيد هذا الملهى ، على استعداد دائما لتلبية رغبات العملاء . انه رجل واسع الافق بعيد النظر .

وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف قطعة من الارملة الطروب . وأمر لهما البرت بزجاجة من الكونياك تاركالهما اختيار نوعها . ومدت ليليان يدها الى كأسها تتقي

بمحتوياته في جوفها . وضحك دي بايستر ، وتأملته ليليان ، ورأت فيه ذلك الطراز من الرجال أومن البشر الذي يجسد الناحية الاخرى من الوجود الانساني . . هذا الطراز الذي له القدرة على تحويل طرق الجبال الوعرة ليجعل منها طرقا للمتنزهات اليانعة المزدهرة . انه يذكرها بليفالليس صقلية . وبادرته قائلة :

ـ يجب أن ننصرف الان .

ـ ما أكثر ما تقولين ذلك . . دائما تريدين الانصراف .

ـ لو تعلم كم أحب أن تستمر هذه الجلسة . أن الدوام من الامور المتعذرة . لو يمكن أن تقف بنا عقارب الساعة حيث هي الان . لكل شيء مهما طال نهاية .

واصطحبها في سيارته الى فندقها ، حيث تركها مودعا . وأقبل الحارس الليلي يستقبلها في انفعال قائلا :

أن السيد كلير نابت يحتل المركز الثاني عشر وقد أعلن المذيع أنه يقود سيارته ببراعة فائقة ! »

ـ هذا ما أعرفه عنه .

ـ اذا ما واصل تقدمه هذا ، فانه سيكون في مقدمة العائدين الى بريسكيا في الصباح الباكر .

واستدارت تزمع السير الى طريق سانت ـ ميشيل لتناول قدح من القهوة والاستعانة بما يضطرب به هذا الحي من حياة على قضاء بضع ساعات من الليل .

وبعد أن شعرت بحاجتها الى التغيير ، نهضت تمشي في الطرقات المحيطة بهذا الحي دون أن تخشى الليل أو السير بمفردها .

واثناء سيرها عبر طريق السين ، وقع نظرها على امرأة مستلقية على الارض ، حسبتها مخمورة ، فلم

تتوقف لتتبين حقيقة أمرها . الا أن خاطرا تبادر الى ذهنها ، وحدا بها الى العودة بضع خطوات ، لتجد أن المرأة قد فارقت الحياة . فندت عن صدر ليليان صرخة مكتومة . ووقفت حيرى لا تدري ماذا هي فاعلة . وتلفتت حولها لتجد جيرار ، شاعر الحي الذي كانت لها به سابق معرفة مقبلا . فبادرته قائلة :

ـ تقدم . ان امرة ميتة ملقاة هناك .

ـ ربما كانت ثملة أو فاقدة الوعي .

ـ كلا ، لقد فارقت الحياة . ماذا دهاك ؟

ـ لست أحب أن أقحم نفسي في مثل هذه الامور .

ـ ولكننا لا نتركها ملقاة حيث هي .

هذا من شان رجال الشرطة . يجب أن نبتعد خشية أن يظنوا بنا الظنون . فلم بنا !

واطبق الشاعر على ذراعها . ولكنها وقفت ساكنة تحملق في الوجه الذي لم تعد صاحبته تدري شيئا مما يدور حولها . والذي تعرف صاحبته الان مالا تعرفه هي . وعاد جيرار يلح عليها بقوله :

« عيا بنا : اننا لن نلقى سوى المتاعب . يمكننا أن نتصل بأولي الامر تليفونيا ليتولوا أمرها » .

وانصاعت له . وكانت تدرك في قرارة نفسها أن جيرار كان على حق فيما زعم . وأسرع الرجل بخطاه مبتعدا عن مسرح الموت . أن الحديث عن الموت شيء ومواجهته شيء آخر .

ورأت أنه يحسن بهما الاتصال بالشرطة تليفونيا من الفندق . وقام جيرار بابلاغ الشرطة ودعته الى كاس من الشمبانيا . وأقبل الحارس الليلي بالزجاجة قائلا :

« لقد أصبح كلير نابت في المركز العاشر » .

واستأذنها جيرار فى الانصراف ، وفى أن يحمل ما تبقى من زجاجة الشمبانيا معه وأذنت له ، وشيعته بابتسامة .

وارتقت الدرج الى غرفتها حيث خلعت ثيابها وآوت الى فراشها .

●●●

صحت ليليان من نومها ، على رنين التليفون . وكانت أشعة شمس الصباح تتفذ من ثنايا ستر النافذة ، وقدرت ان المتحدث أحد رجال الشرطة ، ورفعت التليفون . وكان المتحدث هو كلير فايت :

ـ لقد وصلنا لتونا الى بريسكيا .

ـ بريسكيا ! هل انتهى السباق ؟

ـ وفى المركز السادس .

ـ انها لنتيجة رائعة .

ـ ليس الى هذا الحد . اننى عائد غدا . سأخلد الى النوم الآن . أن توريانى يغط فى نومه فوق المقعد المجاور لى .

ـ أجل . يجب أن تنال قسطا من الراحة . لقد أحسنت صنعا باتصالك بى

ـ هل ستصحبيننى الى الريفييرا ؟

ـ أجل .

ـ عليك بانتظارى .

ـ أجل . أجل .

ـ اياك وأن ترحلى الى أى مكان قبل عودتى .

ـ ستجدنى فى انتظارك .

الفصل الثامن عشر

قال لها كلير فايت : « لقد ابتعت هذا البيت قبل الحرب ، حينما كان فى وسعك أن تبتاعى نصف الريفييرا فى مقابل أغنية . ولم يسبق لى أن أقمت به ، أكثر من الفترة التى كنت أودع فيها بعض الحاجيات والمؤن . وكما ترين ، انه بيت من الطراز القديم . ولن يتعذر علينا اعادة زخرفته وتأثيثه على طراز عصرى » .

فضحكت ليليان قائلة ، « وهل تريد الاقامة هنا حقا ؟! .

ـ وما المانع ؟

وتطلعت بعينيها من النافذة الى الحديقة المظلمة ، قائلة :

ـ حينما تبلغ الخامسة والستين ، وبعد حياة الكد فى نولوز ، يمكنك أن تتقاعد كمواطن فرنسى صالح فى هذه الناحية ، وتقضى أوقاتك بين فندق دى بارى وبين الكازينو فى أيام الاحاد .

ـ ان الحديقة كبيرة ، وهى تستغرق الكثير للعناية بها . وأرجو أن يتاح لى تدعيم مدخراتى بنصيبى من سباق موناكو . ما هو وجه اعتراضك على الاقامة هنا ؟

هل تؤثرين الاقامة في بلد آخر ؟

ـ لست أدري ٠

ـ كيف ؟ أليست لديك أية فكرة ؟

ـ كلا. انني لاأحب التفكير في مثل هذه الامور. ان في تحديد مكان الاقامة ، تحديدا للمكان الذي نموت فيه ٠

ـ ان طقس الشتاء هنا ، أحسن بكثير من طقس الشتاء في باريس. وعلينا أن نسرع باجراء التحسينات المرغوبة قبل أن يحل الشتاء .

ـ الن تضطر الى الاقامة في تولوز ابان الشتاء ؟

ـ بلى ٠ ولكنني أريد أن أطمئن على استقرارك وهل يلائم صحتك في الشتاء .

ـ أن الصحة خير مكان صالح في الشتاء .

ـ وهل ينبغي لك العودة اليها ؟

ـ فلم تعقب بشيء . وعاد كلير فايت يلح في السؤال :

ـ هل تحبين أن تعودي الى المصحة ؟

ـ بما تريدني أن أجيب ألست معك الان ؟

ـ هل استشرت طبيبا في ذلك ؟

ـ هذا ما لا حاجة بي اليه ٠

ـ سنتوجه معا لزيارة أحد الاطباء ٠ وسأبحث لك عن أحسن طبيب في فرنسا ، لنسأله رأيه .

والتزمت ليليان جانب الصمت ٠٠ اذن ، فهذه مرحلة أخرى من حياتنا ٠ أن كلير فايت ، كان يكفيه مني تأكيدي له بأن حالتي الصحية لا تستدعي شيئا من هذا القبيل : لقد تغيرت الاوضاع الان ٠ انه التفكير في الاستقرار الذي يحمله على انتهاج هذا الاسلوب الجديد ..

واستطرد كلير فايت :

ـ هلم بنا الى الخارج . الى الاضواء والحياة . وفي الخارج ، تنفست ليليان الصعداء ٠ وسمعت كلير فايت يصارحها بقوله :

ـ في الحق ، انك راغبة عن الاقامة معي ومشاركتي حياتي ٠ هذا ما أدركه تماما ٠

ـ السنا معا فعلا ؟ ألست اقيم معك ؟

ـ انك تقيمين معي اقامة من يزمع الرحيل غدا ٠

ـ ألم يكن هذا هو أسلوبك في الحياة ؟

ـ ربما ـ أما الان ، فلا : انك لا تريدين أن تربطي حياتي بك

ـ ولا بغيرك ٠

ـ وما هو الضير في ذلك ؟

ـ لقد تحدثنا في ذلك بما فيه الكفاية ٠ لماذا تعود دائما الى هذا الموضوع ٠٠

ـ لانه لم يسبق لي أن رغبت في شيء جاد بمثل ما رغبت في الزواج منك، والاستقرار معي في معيشة واحدة ٠

ـ ألست معك الان ؟

ـ هذا لايكفي ٠

انها لا تريد أن ترتبط بشخص أو بمكان ما ٠ انها ترى في هذا البيت ، أو في غيره سجنا لها ٠٠ ماذا دهاه لماذا يصر على تعكير صفو حياتنا بالحاحه هذا ؟ لماذا لا يقنع بما نحن فيه ؟ وسمعته يستطرد قائلا :

ـ يمكنك أن تحاولي ٠ فاذا ما قدر لهذه التجربة الفشل ، فلك أن تفعلي ما تشائين ٠

وجال بخاطرها : وهل لدى فسحة من الوقت للمحاولات والتجارب ؟ حتى هذه المناقشات، لم يعد لدى

فسحة من الوقت لها . يجب ان أرحل عنه واختفى من حياته .

وتجملت بالهدوء .. انها لم تعد تخشى شيئا .

واتجها الى الكازينو . وراح كلير فايت يقامر ويربح . وقال لليليان :

« أرجو أن تظلى فى مكانك خلفى لانك تجلبين لى الحظ . »

وواتاه الحظ بصورة مذهلة . وتكدست النقود امامه . وأصبح محط انظار الملتفين حول المائدة الخضراء . ورأت ليليان الامير فيولا ، من بين الواقفين .. الامير فيولا الذى زاملها فى الرقص فى ذلك الحفل بصقلية . وداب كلير فايت على المقامرة الى جانب اللون الاحمر . ولم يتخل عنه حظه الى أن اصبح محورا لحديث الجميع . وجمع كلير فايت ارباحه ، وتهيأ للانصراف قائلا :

ـ لقد جلبت لى الحظ فعلا بوقوفك خلفى .

وما أن ترك المائدة ، وأقلع عن المقامرة ، حتى لم يعد الحظ فى جانب اللون الاحمر ، الذى كان الرابح على طول الخط . وعقب على هذا قائلا :

« ارأيت ، انها الحاسة السادسة . ؟

وابتسمت . آه لو قدر لك أن تنتفع بها فى شئون الحب :

وأقبل الامير فيولا يزجى تهانيه لهما :

« ان التوقف عن المقامرة فى الوقت المناسب ، فن فى حد ذاته . »

ثم استدار الى ليليان قائلا : « الا توافقين ؟ »

ـ لست أدرى . اذ ليست لى خبرة بذلك .

فضحك قائلا : « لا أصدق شيئا من هذا القبيل . لقد غادرت صقلية بعد أن غزوت القلوب وشغلت الاذهان . ثم وصلت الى روما ورحلت عنها كالبرق الخاطف ، وفى فينيسيا لم يتيسر لاحد أن يلتقى بك . هذا ما قيل لى . »

وتوجها الى المطعم للاحتفال بما وفق اليه كلير فايت ، الذى بادرها قائلا :

ـ اعتقد أن فى استطاعتى بما ربحته الليلة ، تنفيذ كل ما نريده من تحسينات فى المنزل والتعجيل باعداده .

ـ ولماذا لا تقدر أنك قد تتعرض للخسارة غدا ؟

ـ هل هذا هو ما تتمنين ؟

ـ كلا ، بكل تأكيد .

ـ انى لن اعيد الكرة . وسأضيف الى التحسينات بناء حوض للسباحة بالحديقة .

ـ لست بحاجة اليه ، لانى لا ألم بالسباحة .

ـ هل أنت متعبة ؟

ـ كلا .

ولحق بهما فيولا . وبعد ان اتخذ له مقعدا قال :

لقد كان توالى الاحمر معجزة . ان مثل هذه الظواهر لا تحدث كثيرا . ولم يسبق لى ان شاهدت هذه الظواهر العجيبة سوى مرة واحدة ، توالى فيها ربح اللون الاسود . وكان هذا فيما قبل الحرب ، وقد أدى حظ المقامر الذى لا يقهر الى افلاس البنك . وكان يراهن على اللون الاسود وعلى رقم ١٣ ، بالتتابع . وكان الجميع يحذون حذوه . بعد أن تفاءلوا به . وكان هذا الرجل روسيا . وأظن أنه كان يدعى فولكوف .

فسألته ليليان وهى غير محدقة لما سمعت :

« فولكوف بوريس فولكوف »

ـ تماما ، بوريس فولكوف ! هل لك سابق معرفة به
فهزت راسها نفيا . وكان كلير فايت يتاملها عن كثب .
واستطرد قيولا قائلا :

ـ بودى لو عرفت ما كان من امر هذا الرجل . لقد كان يشترك احيانا فى سباق السيارات ، وكان طبعا مدمنا للخمر . ولعل هذا الادمان هو الذى انتهى به الى ما لا تحمد عقباه . هل نزمع اعادة الكرة الليلة ؟

ـ ولم لا؟ ان الحظ يجذب الحظ .

ـ من الخطأ الجسيم أن يعود الانسان الى المائدة الخضراء بعد مغادرتها رابحا . انها قاعدة قديمة قدم هذا العالم .

ونهض كلير فايت دون ان يدعوها لمرافقته هذه المرة. ودعاها قيولا لتبارك حظه العاثر ، واتجها الى مائدة بخلاف المائدة التى اتجه اليها كلير فايت . وربحت ليليان . ربحت مع الرقم صفر ثم ربحت مع الرقم ١٣ . أما قيولا، فقد كان حظه العاثر ملازما له . وبعد قليل رات كلير فايت يقف خلفها ويتابع اسلوب مقامرتها. وقالت أخيرا : حسبى هذا ..

« وحثها قيولا على مواصلة المقامرة قائلا :

« ان الليلة ليلتك . وهذا الحظ فرصة لا تعوض ! .

ـ لقد انتهى الليل وولى ، ولولا هذه الستائر لرايت نور الصباح .

وما ان خطت مع كلير فايت الى خارج الكازينو ، حتى رات الريفيرا فى ثوبها الطبيعى ـ سماء نحاسية اللون عند الافق ، تلتقى ببحر تتلاطم امواجه فى انتظار بزوغ الشمس باشعتها الذهبية . وكان الشاطىء هادئا ، والنسيم يحمل معه رائحة البحر المالوفة .

ولم تدر ليليان كيف بدات المناقشة بينهما ، ولاكيف تفجرت جدلا عنيفا. لقد سمعته يتحدث ويتحدث، ولكنها لم تفهم مما يحمله حديثه الى اذنيها شيئا :

ـ ماذا فى وسعى أن افعل ؟ رجل استبد من غيابه قوة لم يكن ليحظى بها لو كان موجودا معنا . أنك ترينى الان بكل ما فى من محاسن وعيوب . أما هو فلا عيوب له ، لانه لا وجود له ، ولا يمكن للعدم أن يخلق غير العدم . أليس هذا هو التصوير الصحيح لحالتنا ؟ أليس هذا هو شأننا ؟ لقد كنت أشعر بهذا فى قرارة نفسى . وهذا هو السر فى رفضك الزواج منى انك تريدين العودة اليه !

ورفعت ليليان راسها اليه وهى تردد :

ـ ما هذا ؟ ماذا تقول ؟

ـ أليس هذا هو الحق الصريح ؟ أليس هذا هو عين ما يدور بخلدك ؟

ـ لم يجل بخاطرى سوى ما يتردى اكثر الناس فيه من خطأ لاتحاول ان ترغمنى على موافقتك فيما تزعم قسرا .

انى افعل كل شىء فى سبيل الاحتفاظ بك .

ـ وهل تعتقد انه يمكنك هذا بسلوك هذا المسلك ؟ خل بينك وبين هذه الغبراء ان بوريس سيرفض لقائى اذ ماقدر ان اعود ادراجى الى حيث كنت .

ـ هذا لا ينفى انك تريدين العودة من حيث اتيت .

ـ لاترغمنى على التفكير فى الماضى . هل اعمى الله بصيرتك ؟

ـ ربما كان الامر كذلك . ربما .

وقاد سيارته فى صمت عبر طريق البحر الى انتيب .

وشاهدا عربة يجرها حمار ، وتجلس فى مقعد القيادة منها فتاة فى ربيع العمر ، رافعة عقيرتها بالغناء ، وتأملت ليليان الفتاة وهى سعيدة .

واغرورقت عيناها بالدموع ، وأشاحت بوجهها عن كلير فايت الذى سألها :

ـ ليس ثمة ما يدعو للبكاء . انك تخونيني مع شبح .

نعم . ولكن الشبح لا يسمى بوريس . ترى هل أخبرك باسمه الحقيقى ؟ ولكنه سيودعني ، بعد ذلك ، احدى المستشفيات ، ويقيم على بابها الحراس ، الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

واستدارت تتأمل وجه كلير فايت . ان خير ما أعمله فى هذا الموقف ، هو أن أختفى من حياته .. لقد خبا وميض النار ، ولم يعد ثمة جدوى من التشبث بالرماد .

ودفعا بالسيارة الى ساحة الفندق . وأخذ كلير فايت بيد ليليان دون أن يحاول النظر الى وجهها قائلا :

ـ لن نلتقى كثيرا . فغدا سيبدأ التدريب .

وكان يبالغ فى قوله هذا . لان السياق التالى لم يكن يتطلب تدريبا . وبينت ليليان من قوله حقيقة ما آل اليه الموقف بينهما لقد بلغ بهما طريقه المسدود . أن كلير فايت لن يعود اليها بالصورة التى كان عليها من قبل .. لقد انتهى عهد ما كان بينهما من مشاعر متبادلة ـ من الحب الخالص ، والنية الصافية . ان الحب من أرق المشاعر وأدقها حدا ، وليس من اليسير على جميع البشر أن يوفقوا فى اختيار طريقه بدون مشقة أو عسر أن ما تبقى لها من أيام الحياة ، ليس لكلير فايت نصيب فيه . ومع ذلك فليس لديها متسع من الوقت للتغيير ، ولبدء حياة جديدة . أية حياة جديدة ؟ أنها لتدرك أن هذه هى

حياتها ، وأنها استنفدت منها الكثير . وقطعت برأى فيما يجب أن تقوله له :

ـ كلير فايت .. ان ما قلته ليس فيه نصيب من الصحة . ولا يستند الى حقيقة أو منطق صحيح ! فلتنس كل ما تفوهت به . لانه أبعد ما يكون عن الواقع !

ـ هل ستشاركيننى حياتى ؟

ـ أجل

وكانت تريد أن تضع حدا لاى خلاف بينهما . وعاد يلح :

ـ هل تبينت أخيرا ما أريد ؟

ـ أجل .

ـ وهل تقبلين الزواج متى ؟

ـ أجل .

ـ متى سيكون ذلك ؟

ـ حينما تشاء . فليكن فى الخريف .

ـ أخيرا ساد الوفاق بيننا ! لن تأسفى على قرارك هذا !

ـ أدرك هذا .

ـ انك متعبة .. جد متعبة .. يجب ان تخلدى الى الراحة

ـ وانت ؟

ـ سأنعم بالسباحة قليلا ثم امضى فى طريقى

وذهب بها الى غرفتها ، حيث أودعها فراشها ، وانصرف فى هدوء . وتبادر الى ذهنها : كانى به يودع مريضة فى فراشها باحدى المستشفيات .

وكانت نافذة غرفتها مفتوحة . وراته يتجه الى الشاطىء . وعقدت العزم فيما بينها وبين نفسها على أن تهجره بعد السباق ، وترحل بعيدا عنه .

الفصل التاسع عشر

لم تكن مسافة السباق بأكثر من ميلين طولا ، ولكن طريق السباق كان يؤدى الى شوارع مونت كارلو ، التى تخترق المدينة ، ومنها الى طريق الشاطىء ، عبر المرتفعات المشيد فوقها الكازينو ، ثم العودة الى خط القيام . وكان طريق السباق متسعا فى الكثير من مقاطعه ، وكثير المنحنيات ، دقيق الزوايا فى البعض منها . وكان على السيارة أن تدور ، وتدور فى مثل هذه المنحنيات . والمتعرجات مئات المرات ، متطلبة جهدا مضنيا وبراعة لاتدانى . وقال كلير فايت للبليان ضاحكا :

ـ باله من طريق ماجن ، عابث . ان القيادة فيه أشبه بالقيادة فى السيرك . لاتكاد السيارة أن تنطلق ، حتى تواجه بأحد المنحنيات . أين ستجلسين ... ؟

ـ فى المنصة فى الصف العاشر بالناحية اليمنى .

ـ سيكون الطقس شديد الحرارة . هل معك قبعة ؟

ـ أجل . الا تكفى هذه ؟

ـ حسنا . سنقضى معا هذه الامسية فى البالفيون

دور ، نأكل ونشرب ونلهو ونعبث . وغدا سنتوجه لمقابلة مهندس معمارى تسأله أن يخطط لنا مشروعا لتجديد المنزل .

وسمعت صوت المدير ينادى باللغة الايطالية . وقال لها كلير فايت : « سيبدأ السباق . »

وقبلته ليليان متمنية له التوفيق والسلامة . ولوح لها كلير فايت بيده بعد أن استقل سيارته ولوحت هى الاخرى بيدها .

● ● ●

انطلقت عشرون سيارة . وكان كلير فايت يحتل المركز الثامن ، فى الجولة الاولى . وكان ماركيتى فى المقدمة . وفى الدورة الرابعة ، أصبح كلير فايت فى المركز السابع ، وذلك قبل اجتياز النفق . وبعد ثلاث دورات أخرى ، أصبح فى السادس .

وجعلت ليليان من مقعدها فى المنصة تتابع المتسابقين وهم يمرقون . أمامها ، فلا تكاد أن ترى السيارة حتى تختفى عن نظرها ، ثم تعود بعد قليل فى أقل من دقيقتين . أن على هؤلاء المتسابقين أن يستكملوا مائة دورة . وبعد ما يقرب من الاربعين دورة ، شعرت بأنه قد آن الاوان لان تغادر المنصة الى حيث تستقل القطار قبل انتهاء السباق . وكانت تحتفظ بتذكرة للسفر الى زيورخ ، ابتاعتها فى صباح اليوم ، بينما كان كلير فايت يقوم بالتدريب الاخير . وكان الميعاد المحدد بالتذكرة هو بعد الغد ، حينما يستقل كلير فايت الطائرة الى روما فى المساء . وكان مفروضا أن تستقل القطار بعد ذلك . لقد اعتزمت الرحيل فى غفلة منه لكى تجنب نفسها وتجنبه

مالا طائل تحته من جدل او نقاش . وبينما كانت مستغرقة في خواطرها ، سمعت القوم من حولها يهتفون لكلير فايت الذي استطاع أن يحتل مركزا آخر الى الامام .

● ● ●

وبعد ساعة ، استطاع كلير فايت أن يحتل المركز الثاني . ولم يصبح أمامه سوى أن يتقدم ماركيتي . وكان امامه ثماني عشرة دورة أخرى . وقد حرص على أن يحافظ على المركز الثاني ، الى آخر لحظة حتى يتسنى له أن يقفز الى المركز الاول على غرة من ماركيتي . وبدأ ماركيتي يعترض طريقه ويسده عليه ، وما أن فطن الى ما يرمي اليه منافسه حتى كان كل هم كلير فايت ، أن يفوز بهذا السباق الذي يعلق عليه آمالا كبارا ، فتركز كلها في ليليان وفي الاستقرار معها في حياة زوجية سعيدة ، وكان واثقا من نفسه ، وكان سعيدا بثقته هذه ، سعيدا بقرب تحقيق ما كان يصبو اليه طوال حياته من استقرار .

● ● ●

وفجأة يرى سيارة ماركيتي ترقص من تحت قائدها ، ثم تدور به وتدور ، لتنقلب به رأسا على عقب وماركيتي يطير في الهواء ليسقط على الارض . وحاول كلير فايت أن يجد لسيارته منفذا يندفع بها منه ، ولكنه أدرك أن هذا متعذر عليه ، بسبب السيارة الرافعة وسيارة الاسعاف ، اللتين برزتا فجأة الى الطريق . وعلى الرغم من هذا كله ، فان رغبته في الفوز وانتهاز هذه الفرصة ، حدت به الى الاقدام على محاولة أخرى انتهت به الى كارثة كانت

محققة ! وكان أن حطمت عجلة القيادة عظام صدره ، علاوة على ما لحق به من اضرار اخرى . ودارت الدنيا من حوله قبل أن يفقد وعيه . وأسرع رجال الاسعاف وغيرهم من رجال الانقاذ الى كلير فايت وسيارته لاخراجه من الحطام ، وابعاد سيارته عن النيران المتخلفة عن الاصطدام الاول .

● ● ●

لم تتبين ليليان ما حدث لاول وهلة . ولم يكن صوت المذيع ، واضحا ، لقد سمعت عن اصطدام بعض السيارات ، دون تحديد او تخصيص . ثم راحت تتابع رتل السيارات في مرورها امام المنصة ، دون ان ترى بينها سيارة كلير فايت . غير انها لم تصدق عينيها مرجحة خطأها . ثم عادت تستمع الى المذيع الذي كان يردد نبأ التصادم واصابة بعض المتسابقين دون أن يقتل احد منهم ، ووعد المشاهدين بانباء اخرى اكثر دقة .

وبعد ذلك ، بدأ يسرد مراكز المتسابقين حسب تتابعها ولم تسمع ليليان شيئا عن كلير فايت الذي كان في المركز الثاني . ورأت أن تركز انتباهها في متابعة السيارات المتسابقة في دوراتها ، باحثة عن رقم ١٢ ، المدون فوق السيارة الحمراء . ولم تعثر للسيارة عن أثر بين غيرها . وبينما كانت في حالة من الشك الرهيب ، سمعت المذيع يعلن : « ومن بين المصابين كلير فايت ، الذي نقل الى المستشفى فاقد الوعي .. »

هذا ما لا يمكن تصديقه ! وبالذات في هذا السباق الذي لا يعد شيئا مذكورا قياسا على غيره لابد وأن في الامر لبسا . ان سيارته لا محالة مندفعة مع غيرها ، وما

هي الا لحظة حتى تبدو في مقدمة السيارات . ثم عادت تردد : « فاقد الوعي ! ماذا يعني هذا ؟ »

واخيرا وجدت تمبيها .. دون اردة منها ، تحملانها الى نقطة المراقبة .. بأمل أن تجده هناك ، مستلقيا فوق احدى النحفات . ووجدت المدير يقول لها ، وقد تندى عرقا :

« لقد نقل الى المستشفى . رباه ! لماذا يحدث هذا لنا ! لحظة من فضلك ... »

واندفع الرجل الى حافة الطريق يتابع مسائر السيارات . فأسرعت ليليان الى جانبه تسأله في صوت مرتفع :

ـ ماذا حدث ؟

ولم تسمع منه اجابة على سؤالها . وراحت تدور بعينيها فيما حولها لتقع على من يشفي غليلها دون جدوى . بل ولاحظت انهم كانوا يتجنبونها ويبتعدون عنها .

وعاد المدير يرعد ويزبد ، فقال له :

دعني من كل هذا .. اريد ان اعرف اين اجده الان

ـ في المستشفى حيث نقل .

ـ ولماذا لم تذهب معه ؟

ـ وماذا يمكنني أن افعل له ؟ انه بحاجة الى طبيب الان ، وليس الى مدير .

ـ خبرني ! ماذا الم به ؟

ـ لست ادري . أنني لم اره بعد اصابته . انني يجب ان اتابع السباق من مكاني هذا .

ـ نعم ، نعم . فالسباق يجب ألا يتوقف !

ـ هذه هي الحياة . ان الحياة لا تتوقف باصابة

أحد .. حتى ولا بموته .

ـ هل قضى نحبه ؟

ـ كلا . كلا . انه فاقد الوعي فقط . آسف يا سيدتي .

وعاد المدير يتابع السباق . واستدارت ليليان تعود لدراجها .

واستقلت عربة ركوب الى المستشفى .. وجلست ليليان فريسة للحزن والاسى وكانت تستحث قائد العربة أن يسرع بها . اذا كان يخيل اليها أنها لا تتحرك .

وأخيرا ، توقفت بها العربة أمام المستشفى ، التي خيل اليها أنها كانت على حدود الابد . وكانت ليليان ، قد عاهدت نفسها ، في تلك الدقائق وهي في طريقها الى المستشفى أنها لن تهجر كلير غايت ، وأنها ستقبل الزواج منه ، اذا ما قدرت له النجاة !

وقالت لها ممرضة الاستقبال : « ان السيد كلير غايت في غرفة العمليات .. »

ـ هل يمكن أن أعرف منك مدى اصابته ؟

ـ اسفة يا سيدتي . هل أنت زوجته ؟

ـ كلا .

ـ احدى قريباته ؟

وما علاقة هذا بحقيقة حالته ؟

ـ لا شيء ، سوى ان التعليمات تقضي بعدم التصريح لغير الاقارب بزيارته بعد الفراغ من الجراحة .

ـ وهل كان من المتعين اجراء جراحة له ؟

هذا ما قرره الاطباء .

هل يمكن أن يسمح لي بالانتظار ؟

وأومأت الممرضة لها ايجابا ، وهي تشير بيدها الى غرفة الانتظار .

وجلست ليليان تتصفح بعض المجلات دون أن تعي شيئا مما تقرأ أو ترى . وكانت قلقة ، تضع هذه تمسك بتلك ، وتنهض عن مقعدها وتعود لتجلس من جديد ، وقد خيل اليها أن دنياها قد انحسرت في تلك اللحظات التي تمضيها بين جدران تلك الغرفة .

وبعد خمس عشرة دقيقة ، حين كانت تقف بنـــافذة الغرفة تطل منها ، رأت سيارة تقف بباب المستشفى ، وبها المدير واثنان من مساعديه . وبعد برهة وجيزة ، دخلوا الى غرفة الانتظار واجمين مهمومين .

وسألتهم ليليان : « ما هي آخر الأنباء ؟! »

وأشار المدير الى أحد مساعديه قائلا :

ـ لقد كان موجودا حينما نقل من سيارته .

وقال الميكانيكي : ـ لقد كانت الدماء منبثقة من فمه .

ـ من فمه ؟

ـ أجل يا سيدتي . كانت أشبه بنزيف صدري .

ـ هذا مستحيل . انه لم يكن مريضا فلم يتعرض لنزيف صدري ؟

ـ لان عجلة القيادة حطمت القفص الصدري .

ـ كلا ، كلا !

اتجه المدير الى الباب قائلا : سأحاول مقابلة الطبيب وسمعت ليليان مناقشته الحادة مع الممرضة . ثم عاد أدراجه ، ووقف بالباب ساكنا لا يتحرك . ثم تحركت شفتاه دون أن يسمع له صوت . وأخيرا قال : « لقد لفظ كلير فايت أنفاسه الأخيرة . »

حملق مساعداه في وجهه ، ثم قال له أصغرهما سنا : « وهل أجريت له جراحة ؟ هل أخطأ الأطباء في شيء ؟ »

ـ لم تجر له جراحة . لقد توفي قبل أن يتمكنوا من هذا .

ووقف الرجال الثلاثة يتأملون ليليان .

وأخيرا قالت : « وأين هو الآن ؟ »

ـ من الأفضل ألا تريه الآن . فلتؤجل هذا الى الغد .

ـ ومن يا ترى صاحب هذا الرأي ؟

ـ انه الطبيب . انك ان رأيته لن تتعرفي عليه . وانه لمن الخير لك أن تعودي في الغد . يمكن أن تصحبك الى الفندق .

ـ وماذا يتعذر علي ان أتعرف عليه »

وأطرق المدير لحظة قبل أن يجيب : « ان وجهه مشوه . ويرجح الطبيب أنه فقد وعيه لتوه . فلم يعرف شيئا عما نزل به . ان مصابنا فيه أليم . ان معرفتنا به تمتد الى أقدم من معرفتك به ! »

ـ أجل . هذا صحيح .

ـ أرجو ألا تسيئي فهمي . انني اعني ان معرفتنا الطويلة به تضاعف من الشعور بفراقه لنا . ان الموت فراق .. فراق طويل . هذا هو الموت .. يكون الرجل بيننا ، ثم يمضي عنا في لمح البصر .

ـ أجل ! انني أدرك ما تريد التعبير عنه .

ـ هلم بنا الى فندقك . وغدا ، يمكنك أن تعودي لرؤيته .

ـ وماذا تراني فاعلة في فندقي .

ـ يمكنك استدعاء طبيب ليصف لك منوما . ثم انك لن تفعلي شيئا بتخلفك هنا . هيا بنا . لقد أصبح كلير فايت في عداد الموتى . وليس في وسع اي منا ان يفعل شيئا اذا ما مات الانسان ، فكل شيء قد انتهى . هيا معي ، انني مدرك لما تشعرين به .

الفصل العشرون

الفصل العشرون

استيقظت ليليان من نوم عميق . وظلت لحظة لا تدرى مما حولها شيئا ، وكأن سبل اتصالها بالعالم قد انقطعت بها . ثم بدأت وخزات الحزن والشجن تجز فى قلبها . واستقامت فى فراشها تتلفت فيما حولها .. ورويدا رويدا ، استعادت ساعات الأمس ولحظاته الحرجة ، من منصة السباق ، الى غرفة الانتظار بالمستشفى . ومنها الى كلير فايت المسجى على فراش الموت بوجهه المشوه ، ويديه المضمومتين فى وضع الصلاة ، والطبيب الواقف الى جانبها يحاول التسرية عنها .

ترى . أو كان كل هذا حلما ؟ او يمكن أن يحدث ذلك ؟

ونهضت من فراشها تحسر ستائر النافذة . واندفعت أشعة الشمس الى الغرفة . واجتمعت زرقة السماء ، مع أشجار النخيل الباسقة ، مع أحواض الزهر اليانعة ، لتجعل من موت كلير فايت أمرا أبعد ما يكون عن الحقيقة والادراك .

كان مفروضا أن يبدأ الموت بى ! انه مصيرى المحتوم الذى كنت أترقبه فى غير وجل !

وسمعت رنين التليفون . فأسرعت ترفع السماعة . وكان المتحدث أحد مندوبى مكاتب تشييع جنازات الموتى يعرض خدماته ، محليا وفى الخارج .

وكانت لا تعرف ماذا ينبغى لها أن تفعل . فأين يا ترى هو موطنه ؟ لقد قال لها انه من موالبد الالزاس واللورين ، ولكنها لم تعرف مسقط رأسه على وجه التحديد ؟ وعاد التليفون الى رنينه . وكان الاتصال فى هذه المرة من المستشفى . ماذا هم فاعلون بالجثة ؟ انها يجب أن تسلم بعد الظهر على الاكثر . ويجب أن يعد نعش للجثة .

والقت ليليان نظرة على ساعتها . كان الوقت ، وقت الظهيرة . فأسرعت ترتدى ثيابها . أما كان الاجدر بى أن اتشح بالسواد ؟ وكانت ليليان تشعر بانها ما زالت تحت تأثير المخدر الذى تعاطته قبل النوم . وعلى الرغم من كل هذه الاتصالات التليفونية ، فقد كانت الريبة تساورها من لحظة الى أخرى . وأسرعت تهبط الدرج لتسأل موظف الفندق النصح والمشورة . وقالت له :

— أرجو أن تقوم بعمل كل ما تراه ضروريا فى مثل هذا المجال .

وقال لها الموظف ، انه يجب ابلاغ أولى الامر بالحادث . وراح يسرد على سمعها ما يستتبع هذا من اجراءات لا غنى عنها ، تتصل بالتعويض وبالتأمين ، الى الى آخر هذه الشكليات . رباه يبدو ان الموت فى حينه أكثر يسرا منه بعد وقوعه . هل تحمل معها أوراق تحقيق شخصيته ؟

ـ أوراق تحقيق الشخصية ؟ وهل لا زال بحاجة الى مثل هذه الاوراق ؟

ـ بلى . لان اخطار الشرطة من الاجراءات الضرورية مهما يكن من أمر طبيعة الحادث . وبدون أمر الشرطة لا يمكن نقل الجثة . وساتولى عنك أمر هذه الشكليات .

فشكرته ليليان . لقد كانت تريد أن تغادر المستشفى فورا . فقد كانت تشعر بأنها على وشك أن يغمى عليها . وتبادر الى ذهنها انها لم تاكل شيئا منذ ظهر الامس ، ولكنها كانت لا تستطيع أن تعود الى مطعم الفندق . واسرعت تغادر الفندق الى مقهى دى باري . وجلست تتامل السيارات وهى فى طريقها الى الكازينو ، وتتابع بنظراتها الناس وهم يضطربون فى حياتهم العادية . وما أن فرغت من احتساء قدح القهوة الذى كان أمامها ، حتى نهضت من حيث كانت تجلس وهى لا تلوى على شيء ، وحاولت أن تقنع نفسها بأنها كانت ستهجره لا محالة ، وانها كانت لن تراه لا فى باريس ولا فى سويسرا ، وانها كانت قد عقدت العزم على أن تعده غير موجود فى حياتها . ولم تجد معها أو قل مع نفسها هذه المحاولات . . ان موته شيء ، وهجرانها له شيء آخر . واتخذت لها مجلسا فوق أحد المقاعد المطلة على البحر . وكان ذهنها يضطرب بالكثير مما تريد عمله ، ولكنها كانت لا تدرى بماذا تبدأ . وكان طيف كلير فايت ، وموته المفاجيء ، يشغل عليها تفكيرها .

وعادت أدراجها الى الفندق ، واتجهت الى غرفتها دون أن تتحدث الى أحد . وعند باب غرفتها توقفت وهى فى حيرة من أمرها . لقد سالها موظف الفندق عن أوراق كلير فايت . وكانت فى فزع من خاطر التوجه الى غرفته

للبحث عن هذه الاوراق . واستجمعت قواها وخطت نحو الباب الذى وجدت به مفتاحه ، وافترضت وجود احدى الخادمات بالغرفة لتنظيفها . وشجعها هذا على فتح الباب . ورأت أمامها امراة جالسة الى الخوان فى حلة رمادية اللون . وبادرتها هذه بسؤالها : « ماذا تريدين ؟

وخيل الى ليليان أنها أخطات الغرفة . ولكنها رات معطف كلير فايت معلقا الى مشجب . فسألتها بدورها :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ـ هذا عين ما أردت أن أسالك عنه . اننى شقيقة كلير فايت . ماذا تبغين من دخولك الى هذه الغرفة ؟ ومن تريدين ؟ !

والتزمت ليليان جانب الصمت . لقد سبق لكلير فايت أن حدثها عن أخت له ليست على علاقة حسنة معه . وأنه لا يعرف عنها شيئا منذ عدة أعوام . ورجحت ليليان أن هذه هى الشقيقة المعنية . وقالت ليليان اخيرا :

ـ لم أتوقع وجودك هنا . وما دام الامر كذلك ، فليس ثمة ما يستوجب وجودى .

ـ هذا هو عين الصواب . لقد قيل لى أن شقيقى كانت له علاقة ما باحدى النساء . ترى هل تكونين المعنية بذلك ؟

ـ ليس هذا من شأنك .

وعادت ليليان أدراجها الى غرفتها . وبدأت تعد حقائبها ، الا انها سرعان ما توقفت عن ذلك . لن أستطيع أن أرحل قبل أن يوارى التراب .

وتوجهت الى المستشفى ، حيث قالت لها ممرضة الاستقبال أنها لا يمكن أن يسمح لها بالقاء نظرة أخرى

على كلير فايت . وانه قد صار تشريح الجثة بناء على طلب أحد أفراد اسرته . وأن الجثة ستودع نعشا من الزنك ، ثم تنقل الى مسقط رأسه .

وأمام المستشفى ، التقت ليليان بمدير السباق ، الذى قال لها : « اننا راحلون هذا المساء » . هل التقيت بشقيقته ؟ انها تتخذ موقفا عدائيا من الجميع . وقد تقدمت بشكوى الى الشرطة ، وطرقت جميع الابواب . وهى تطالب بمعاش مدى الحياة ، مدعية بأن كلير فايت كان عائلها الوحيد . اننا راحلون . ويحسن بك أن ترحلى ، اسوة بنا : لقد انتهى كل شىء .

ـ أجل ، لقد انتهى كل شىء .

ومشت على غير هدى فى الطرقات . وكانت تنتقل من مقهى الى آخر ، الى أن أقبل المساء وقفلت راجعة الى الفندق . وشعرت بأنها جد مرهقة متعبة . وما أن آوت الى فراشها حتى استغرقت فى نوم عميق ، وصحت من نومها على صوت رنين التليفون . وكانت شقيقة كلير فايت ترغب فى لقاء عاجل بها للتحدث فى أمر هام ، ودعتها لزيارتها بغرفتها . غير أن ليليان قالت لها :

ـ اذا كان لديك ما تريدين التحدث به الى ، فتصارحينى به الان .

ـ انه حديث لا يمكن أن يتم عن طريق التليفون .

ـ فليكن لقاؤنا ، ما دام الامر كذلك ، فى بهو الفندق .

ـ انه أمر عاجل لا يحتمل التسويف .

ـ سنلتقى ظهرا .

ثم أعادت السماعة الى مكانها . وألقت نظرة على ساعتها ، فوجدتها التاسعة صباحا . لقد قضت فى نومها خمس عشرة ساعة ، ولكنها لم تزل متعبة .

ونهضت الى غرفة الاستحمام ، لتستعين بالماء على ازالة آثار الخمول عنها . ومن هناك سمعت طرقا على باب غرفتها . فاسرعت تضع ثيابها . وقبل أن تتمكن من فتح الباب ، رأت شقيقة كلير فايت تقتحم عليها غرفتها قائلة :

ـ هل تدعين الانسة دنكرك ؟

ـ يمكن تأجيل أى حديث بيننا الى الساعة الثانية عشرة فى بهو الفندق كما سبق أن قلت لك . ليس الان ولا هنا مجال هذا الحديث .

ـ ولكننى حضرت اليك بنفسى ، وأريد ...

ـ لقد اقتحمت على غرفتى . لا تحملينى على الاتصال بادارة الفندق ، لاتخاذ ما ينبغى حيالك .

ـ لن أستطيع الانتظار حتى الثانية عشرة ظهرا . ان ساعة قيام قطارى ستكون قبل ذلك . هل تريدين لمخلفات أخى أن تظل مدفاة على الاثريز ، الى أن يطيب لسيادتك الحديث معى ؟ ان معى نسخة من مستند شرعى عثرت عليها بين مستندات شقيقى . وليس من شك فى أن لديك الاصل . انها بشأن التنازل لك عن بيت باتريفيرا .

ـ لى أنا ؟

ـ ألا تعرفين شيئا عن ذلك ؟

ـ اطلعينى على هذا المستند .

ـ ألم يسبق لك الاطلاع عليها ؟

ولم تجب ليليان بشىء . وبعد أن أطرقت قليلا قالت لها :

ـ وهل هذا ما كنت تريدين التحدث به الى ؟

ـ أردت أن أبصرك بأن الاسرة ستطعن فى هذا التنازل ، ولن تعترف به .

ـ قد يكون من الخير لك ، أن تقرري رفضك هذا التنازل ، تجنبا لما قد يستتبعه الطعن من استجواب محرج .

ـ وهل أعددت هذا الاقرار ؟

ـ انه معي .. ليس عليك الا أن توقعي عليه بامضائك . يسرني أنك تحسنين تقدير الامور .

ومدت ليليان يدها تتناول المستند منها ، ثم مزقته اربا قائلة : « فلتخرجي فورا . لقد ضقت بك ذرعا . »

وتمالكت المرأة نفسها قائلة : « لقد قلت أنك لا تعرفين شيئا عن هذا التنازل . »

وانجهت ليليان الى الباب تفتحه وهي تقول :

ـ هذا ما عليك أن تكتشفي أمره .

ـ وهذا ما ساقوم به فعلا . ان الحق في جانبنا . ثمة فارق كبير بين الاقرباء وبين ..

واسرعت ليليان تلتقط بعض الزهور التي سبق أن اهداها لها كلير فايت منذ يومين والفت بها في وجه المرأة ـ لانها لم تجد أفضل من هذه الطريقة لاسكاتها .

وصرخت المرأة في وجهها قائلة :

ـ ستدفعين ثمن هذا .

ـ أغربي عن وجهي .

وانصرفت شقيقة كلير فايت . ووقفت ليليان واجمة محدقة . وماشت الدموع من عينيها ، فنفست عنها كربتها .

استوقفها مرظف الفندق في البهو قائلا : « لقد استجدت بعض المشكلات . »

ـ وماذا عساها أن تكون ؟

ـ لقد قضت أوامر شقيقة المتوفى بصنع نعش تنقل به

الجثة الى بلدته ، وذلك بعد أن نقننا أوامرك بصناعة نعش محلي .

ـ الا يمكن اعادته للمصنع ؟

ـ حاولت ذلك ، ولكنهم رفضوا . ويمكن اعادته بنصف الثمن .

ـ فليكن .. ارجو أن تعد لي قائمة الحساب لانني راحلة هذا المساء .

ـ حسنا يا سيدتي .

● ● ●

عادت ليليان الى غرفتها . ودق جرس التليفون . ولكنها لم تجب . واستكملت اعداد حقائبها . وفي حقيبة يدها ، عثرت على تذكرة السفر الى زيوريخ ، المحدد لها مساء اليوم بالذات .

ودق جرس التليفون ثانية . وتجاهلته الى أن توقف رنينه . وشعرت بانقباض شديد وبعاصفة من الرعب تجتاح حنايا نفسها . ترى هل تكون وفاة كلير فايت هي خاتمة المطاف ؟ أم ثمة نوازل أخرى يدخرها القدر في جعبته ؟ ترى ماذا ألم ببوريس هو الاخر ؟ ومدت يدها الى التليفون تحاول الاتصال به غير انها عدلت عن ذلك في اخر لحظة انه سيعتقد انها لم تتصل به الا بعد وفاة كلير فايت . وهو لن يصدق مهما قالت ، أنها كانت قد عقدت العزم على أن تهجر كلير فايت .

وجلست في سكون تستمع الى حفيف زعف النخيل ، الى ان مالت الشمس في افق المغيب . ثم نهضت تعتزم الرحيل ولكنها ترددت ثانية . انها لن تستطيع السفر قبل أن تستوثق من أن بوريس ما زال على قيد الحياة .

وليس من الضروري أن تتصل به رأسا . ان في وسعها أن تتصل بمكان اقامته ولا تفصح عن حقيقة اسمها ، فاذا ما علمت بوجوده قطعت الاتصال التليفوني .

وتم الاتصال بالمسكن الذي كان يقيم به بوريس . ووجدت أنها تفصح عن حقيقة اسمها . واتضح لها بعد أخذ ورد أن بوريس غادر المسكن الى حيث لا يعلم أحد بعنوانه الجديد . واستبد الشك بها ، وتواردت في خاطرها شتى الظنون . وجلست في سكون مخيم ، نهبا لتيار شديد من الحيرة والقلق . وأخيرا نهضت متجهة الى حيث قامت بسداد قائمة الحساب ، وأمرت بنقل حقائبها الى محطة السكك الحديدية .

الفصل الحادي والعشرون

جلست فوق أحد المقاعد أمام المحطة . وجلس أمريكي الى جانبها يثرثر ويتحدث عما صادفه من مشاق في أوروبا ويقارن بين طعام بلاده وطعام غيرها من البلاد الأخرى . وكانت ليليان ساهمة الطرف ، شاردة الفكر ، فريسة للشعور العميق بالحزن ، والضياع ، والاسى . ووقع نظرها على الكلب الذي يعدو متجها اليها دون أن تتعرف عليه . وفزع الامريكي ، وأسرع ينهض مبتعدا . وتوقف الكلب أمام ليليان قبل أن يندفع نحوها ثانية ، ليستقر بساقيه الاماميتين فوق كتفيها ، محاولا أن يلعق وجهها بلسانه ، بينما كان ينبح ويصرخ ، الى أن تجمع الناس من حولهما . ووجدت نفسها أخيرا تصيح : « وولف ، ماذا تفعل هنا ؟ »

وفجأة تخلى الكلب عنها ، ثم اندفع يعدو في اتجاه رجل كان يجتاز الميدان ، ويعود اليها لاهث الانفاس . ونهضت تتطلع الى حيث وجدت تولوكوف قادما ، فصاحت دهشة : « بوريس ! »

ـ هكذا وفقت في العثور عليك أخيرا . لقد علمت من

موظف الفندق بانك غادرته الى المحطة . واعتقد انني وصلت في الوقت المناسب .

ـ لقد اتصلت بك تليفونيا ، وقيل لي انك رحلت . ولقد خيل الي ..

ـ لقد قرأت عن الحادث في الصحف . وهذا هو سبب مجيئي . ولم أكن أعرف شيئا عن محل اقامتك على وجه التحديد ، والا لكنت قد اتصلت بك تليفونيا .

ووقفت تتأمله لحظة . ثم سمعته يستطرد قائلا :

ـ حمدا لله انك بخير . فكل ما عدا ذلك عديم الاهمية .

وفهمت ما يعنيه بقوله هذا . ما عدا ذلك مما أساءت به اليه ـ ما عدا ذلك من أنانية ومن جرح لكبريائه ، لم يعد له مكان بينهما . لقد نسي كل شيء لمجرد لقائه بمن أحبها وأحلها من قلبه في أعز شغافه .

وعقبت قائلة : ـ أجل . كل شيء ، عدا ذلك ، لا أهمية له .

ـ متى تحل ساعة سفرك ؟

ـ بعد قليل . لم يعد لهذا أية أهمية .

ـ الى أين كنت تزمعين الرحيل ؟

ـ الى زيورخ .

ـ هل تحبين الاقامة في انتيب . في فندق دي كاب ؟ هل أسالهم حمل حقائبك اليه ؟

ـ كلا . دع الحقائب في مكانها . فلا رغبة لي في الاقامة في هذه الانحاء . كما يجب ان تعود من حيث قدمت .

ـ لا يوجد ما يستدعي عودتي .

ـ هل تم شفاؤك ؟

ـ كلا . ولكنني اريد أن أكون معك حيث تكونين .

ـ ولكن ..

ـ لقد أدركت ما دفعك الى الرحيل .

ـ اذن ، فلماذا لم ترحل معي ؟

ـ وهل كنت ستوافقين ؟

ـ كلا . في الحقيقة ، لا . لم اكن لاوافق .

ـ لانك كنت تريدين أن تخلفي وراءك كل ما يتصل بمرضك . كنت تريدين الهرب منه .

ـ ربما كان الامر كذلك . يخيل الي انه ماض بعيد انه الماضي الذي ولى ومضى بكل ظروفه وبكل ملابساته .

ـ هل تريدين حقا الرحيل الليلة ؟

ـ أجل .

ـ سأحاول أن أبتاع تذكرة سفر لي .

وعاد فولوكوف بتذكرة السفر ، قائلا :

ـ حينما نصل الى زيورخ ، سنتدبر أمرنا .

ـ انني اريد العودة .

ـ العودة ؟ العودة الى أين ؟

ـ كنت في طريق العودة ـ كنت أزمع هذا منذ فترة . صدقت أم لم تصدق .

ـ وماذا يدعوني لعدم تصديقك ؟

ـ وماذا يدعوك لتصديقي ؟

ـ لانه سبق لي أن سلكت هذا المسلك . الانطلاق ثم العودة .

ـ ولم تستمع الى نصح ؟

ـ بلى ، اذ لا جدوى من ذلك . ومهما يكن من أمر ما يقدم الينا من نصح ، فلن نفعل غير ما عقدنا العزم عليه ، ثم نعدل عن مواصلة طريقنا بعد أن نتبين ما ترديدنا فيه من

خطأ . هذا هو الانسان فان لم نفعل ذلك ، خيل الينا انه قد فاتنا الكثير . هل يمكن أن اعرف الى أين تزمعين الذهاب بعد زيورخ ؟

ـ الى اية مصحة . انهم لن يوافقوا على عودتي الى مصحة بيلافيستا .

ـ انهم سيوافقون على عودتك بدون ادنى شك . ولكنك متعبة وبحاجة الى الراحة مؤقتا الى ان تستردي بعض عافيتك .

ـ أريد العودة فورا . وهذه العودة كنت قد قطعت برأي فيها ابان حياة كنير غايت دون علم منه .

ـ ولماذا ؟

ـ لاكثر من سبب . ولم أعد أعي منها شيئا الان .

ـ اذا ما قررت التخلف هنا ، فاني مقيم معك .

ـ كلا . حسبي ما كان . انني أريد العودة . ولئن كنت تريد الاقامة هنا ، فليس عليك من حرج ، فلتأخذ انت الاخر نصيبك من الدنيا .

ـ لقد كان لي نصيب كبير منها .

ـ هذا ما سمعت به فعلا .

ومن زيورخ ، اتصل فولكوف تليفونيا بالمصحة . وبادره مدير المصحة قائلا : « ما زلت بعد على قيد الحياة ؟ فليكن ، نحن في انتظارها » .

ومكثت ليليان أسبوعا بفندق دولدر في زيورخ . وكانت ملازمة فراشها لما كانت تشعر به من ارهاق وفجأة ارتفعت حرارتها دون أن تنخفض لعدة أيام متوالية . واستدعى فولكوف احد الاطباء لزيارتها . وصارحه الطبيب :

« كان من المتعين أن تودع احد المستشفيات من قبل .

ومهما يكن من أمر فلتبق حيث هي الان . »

ـ انها تريد العودة الى مصحتها بين الجبال .

ـ كما تشاء . على ان تحمل على محفة .

ووافقه فولكوف ، وان كان يبطن خلاف ما يظهر . ان معاملة المرضى معاملة من تشرف حياتهم على النهاية ، قد يعجل بنهايتهم ، ويسيء اليهم باكثر مما تسيء به اليهم المعاملة العادية .

وبادرته قائلة بعد عودته من تشييع الطبيب :

ـ يالبوريس المسكين ! ماذا قال الطبيب لك ؟ هل صارحك بأنني لن تمتد بي الحياة الى نهاية الرحلة ؟

ـ لا شيء من هذا القبيل .

ـ ولكنني سأقاوم على الرغم مما قاله لك . الى بكأس من الفودكا . ان علينا ان نتخذ من كل لحظة نحياها سلاحا نقاوم به الخوف مما هو آت .

● ● ●

واستقلا السيارة الى الجبال ، في يوم دافيء ، معتدل الطقس . وفي احد المنحنيات التقت سيارتهما باخرى تفسح لهما الطريق . وصاحت ليليان : « هولمان انه هولمان ! »

ـ ليليان ، وبوريس ! ولكن .. لحظة ريثما انتحى بالسيارة جانبا .

وعاد ادراجه اليهما سيرا على قدميه ، وبادرته ليليان بسؤالها : « ماذا جرى ؟ الى اين تراك ذاهبا ؟ ! »

ـ لقد قلت لك انني شفيت ؟ الا تذكرين ؟

ـ وهذه السيارة ؟

ـ استعرتها . لانه لا يجمل بي ان أسافر بالقطار ، وقد

– الى العمل ؟ مع من ؟

– مع مديري القديم . لقد اتصلوا بي تليفونيا . انهم بحاجة ماسة الى خدماتي . وساعاود نشاطي بالاشتراك مع توريانى . تمنياتك . كم انا مسرور بلقائك ، انها لصادفة سعيدة !

ولوحت ليليان له بيدها ، وهو في طريقه ليحتل مركز كلير فايت ، كما احتل كلير فايت مركز زميل له من قبل ، وكما سيحتل آخر مركز هولـــان من بعد .

● ● ●

بعد أسابيع ستة ، لفظت ليليان انفاسها الاخيرة ، في يوم صيف ، هادئ جوه وسكن . وكانت وفاتها سريعة ، خاطفة ، مفاجئة . ولم يكن الى جانب فراشها أحد . وكان بوريس قد ذهب الى القرية في شأن له . وعاد ليجدها مسجاة في فراشها وقد فارقت الحياة . وكان وجهها منقبضا ، محتقنا ، مما ينبيء أنها لفظت انفاسها نتيجة لنزيف حاد . وكانت يداها قريبة من حنجرتها . وبعـد قليل ، استرخت ، واصبح وجهها اجمل ممـا سبق لبوريس أن رآه عليه من جمال من قبل . وقد حمله هذا على الاعتقاد بأنها غادرت الدنيا سعيدة ، سعادة البشر الهانئين .

انها قبل أن تموت . . أرادت أن تعيش ، وعرفت كيف تعيش . . !

تمت

رقم الايداع بدار الكتب
٥٢١١ / ١٩٦٩

مطابع الأهرام التجارية

www.liilas.com

florist

السماء لا تحابي أحدا

قصة أحلام اليقظة .. تتحرك الشخصيات فيها لأداء أدوارهم على مسرح الحياة اللاهية .. فتدفع بهم الأحداث الى المصير الذى لا مفر منه ولا مهرب حيث تتبدد الأحلام لاصطدامها بالواقع الذى نحياه ، حين ذلك يتأكد أن السماء لا تحابي أحدا .

١٠ قروش
ق ج ع م